القسم الأول

الأمير

١- الاستيلاء على العاصمة

في خريف ١٩٠١م غادرت مجموعة مكونه من أربعين رجلاً[١]، وهي ممتطية ظهور الجمال، غادرت مدينة الكويت الواقعة على ساحل الخليج العربي، متجهة غرباً صوب صحراء الجزيرة العربية - يرفرف في مقدمتها علم أخضر وهي تتابع سيرها نهاراً، ويضيء مصباحٌ طريقها ليلاً.. يقودها شاب في حوالي الواحد والعشرين من عمره، طويل القامة، عركته غارات الصحراء وحروبها، ذلك هو عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، أحد أفراد بيت ملوكي يعيش في المنفى.

كانت رحلتهم تلك محفوفة بالمخاطر، فالصحراء دائماً غير آمنة، خاصةً في الوقت الذي كانت فيه تلك المجموعة من الرجال مسافرةً صوب الصحراء العربية، فقد كان ذلك الجزء منها خاضعاً لعائلة آل رشيد، المنافس الفعلي للبيت السعودي- وقد كان فيما مضى تابعاً لآل سعود، ولكن سلطتهم زالت عنه، بعد أن فقد والد ابن سعود عرشه وحكمه بفضل ما وقع من خيانة، وغدر، وسفك للدماء فتحول الحكم في أجزاء واسعة من تلك الصحراء إلى آل

---

(١) الذي ثبت مؤخرًا بناءً على التقصي التاريخي أنهم ستون رجلاً، تم تكريم حفدتهم في مناسبة مرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، عام ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

رشيد في فترة الإحدى عشرة سنة الماضية. ومن ثم لم تكن مجموعة الأربعين رجلاً المسافرة في تلك الأصقاع لتشعر بالراحة والأمان.. فالأعداء فيها في كل مكان.

وكما يبدو من ذكريات بعض أفراد تلك المجموعة ممن أتموا الرحلة-أنهم بدؤوها وكلهم ترقب، وتوقع - فقد كانوا هم أنفسهم عرباً من أعراب الصحراء، وأعراب الحاضرة، كانوا بدواً بالوراثة، نشاطهم ينحصر في أمرين هما: إما الصيد في الصحراء بواسطة الصقور، أو الكلاب -، وإما الإغارة على القبائل الأخرى[1]... وكانت نفوسهم تتوق للصحراء وحريتها، بعد أن أضجرهم عيشهم في مدن الساحل، كالكويت والبحرين، والتي لجؤوا إليها بعد سقوط دولة آل سعود.

كانت الآمال التي تراود ابن سعود أثناء تلك الرحلة، هي أحلام الشباب، الوثابة، الطموحة، والتي تبدو دائماً صعبة المنال، وكانت آمالاً تختلف تماماً عن آمال صحبه المرافقين له، والتي كانت آمال بعضهم لا تعدو أن تكون رحلتهم تلك رحلة مغامرة في الصحراء، وذات فائدة مادية لهم... وفي مقابل هذه الآمال، كان أمل ابن سعود ومبتغاه هو الاستعانة برفاقه الأربعين لاستعادة ملك أبيه، وإقامة حكمه من جديد في أملاكه السليبة.

كانت جماعة ابن سعود لا تحمل في رحلتها تلك إلا الخفيف والقليل من المتاع والسلاح - بعض البنادق، والخناجر، والسيوف، بعض الذخيرة، وشيئاً من التمر، والدقيق، والماء، وكانوا من خيرة الرجال، وأشدائهم- وكذلك كانت رواحلهم- فالطريق أمامهم شاق وطويل وغير آمن، وكان هم ابن سعود أثناء

(١) ليست الصورة كما يصفها المؤلف بهذه المبالغة، بل كان الأمر عاديًا، مع العلم أن تقسيمه للسكان بهذا الشكل ليس دقيقًا.

مسيرتهم الطويلة القاسية تلك - هو محاولة إذكاء جذوة الإخلاص، والولاء له، ولأسرته في أوساط رجال القبائل، الذين كانوا في يومٍ من الأيام خاضعين لسلطان آبائه وأجداده... وربما أرادهم ابن سعود أن يثوروا - من بعد ذلك - على حكامهم الحاليين- ثورة تعم البوادي، والحضر، وتمهد لاستعادة سلطان بيته السعودي من جديد... ولكن أمل ابن سعود هذا - إن كان هذا حقاً أمله - أمر صعب المنال.. وهو أمل لم يتحقق .. - فلم يثر رجال القبائل، ولم تشهد الصحراء ثورة عارمة.

تحرك ابن سعود من الكويت أولاً صوب الغرب، ثم صوب الجنوب، متجهاً إلى المنطقة التي كانت في يوم من الأيام تحت حكم والده، ولقد تهيأت له فرص أثناء مسيره مكنته من أن يمد رجاله بكل ما يحتاجونه، وقد قيل فيما بعد: إنه غنم في إحدى المرات خزانةً مليئةً بالذهب[1] - وإن كان هذا أم لم يكن، فقد تبعه ورجاله عدد قليل من البدو، في الوقت الذي كان فيه ابن رشيد يعمل جاهداً على مطاردته، والقبض عليه[2]، بواسطة القوات الكبيرة التي كان يرسلها على ابن سعود وجماعته. الأمر الذي اضطره إلى تحويل خط سيره شرقاً مرة أخرى- إلى منطقة الأحساء الساحلية التي كانت خاضعة آنذاك للسيطرة التركية، مما جعل الأتراك يحركون بعض قواتهم، ويرسلونها ضده، وأمام هذين الخطرين - الأتراك في الشرق وبدو ابن رشيد في الغرب- اضطر ابن سعود للتحول والتوغل جنوباً حتى وصل إلى أطراف الربع الخالي، حيث لا مرعى لجماله، وحيث التلال القاحلة الجافة التي لايؤمها أحد.

(١) لم يرد في المصادر المعاصرة للملك عبدالعزيز أو نقل عنه مثل هذا الخبر.

(٢) لم تحدث مثل هذه المطاردة، ولعل المؤلف قال هذا نظراً لبعده عن الأحداث وطبيعتها، على أنه كتب هذا في الأصل للمتلقي الغربي الذي يرى ما يحدث في الشرق على هذه الشاكلة لتأثره بالقصص العربية المتداولة عندهم.

ازدادت أعداد رجاله أثناء سيره جنوباً فبلغ عددهم أربعمائة رجل، ولكن هذا العدد أخذ يتضاءل عندما اقترب من أطراف الربع الخالي، وانفصل عنه الكثيرون حتى صار مع رجاله الأربعين الذين بدؤوا الرحلة معه من الكويت، ولئن تضاءل وضمر عدد الرجال، فإن الرياض ظلت باقية في ذهنه، ووجدانه.

فقد كانت الرياض عاصمة والده، وهي مسقط رأسه، وفيها ترعرع وشب حتى بلغ العاشرة من عمره - ولكن الوصول إليها صعب، فهي من أصعب عواصم العالم منالاً، إذ إنها تبعد حوالي ألف ميل من مدن ساحل البحر الأبيض المتوسط ذات الحضارة، وحوالي مائتين وخمسين ميلاً من أقرب ساحل بحر، كما أن الصحراء- التي يصعب عبورها- تحيط بها، وتحميها من تدخل وتطفل العالم الخارجي- وكان تعداد سكانها في عام ١٩٠١م ما بين خمسة إلى عشرة آلاف نسمة، ومساكنها مبنية من الطين يزحم بعضها بعضاً، وبها قصر قديم متداع، وحصن، وعدد من المساجد، ويحيط بها عدد من الأسوار الطينية المتصدعة، والرياض آنذاك تعيش معتمدة على واحتها. وتشبه في تخطيطها وبنائها العمراني مدينة أريحا Jerico- ومدن العهد القديم الأخرى ذات الأسوار - وفيما عدا التغيير الذي طرأ على دين أهل الرياض، فإن حياتهم ظلت كما هي لم تتغير منذ آلاف السنين.

قليل من الأوربيين - حوالي ثمانية أو تسعة[1]- هم الذين زاروا الرياض، فقد جاء المكتشفون إلى تلك الجهات الصحراوية في الأعوام ١٧٩٣م،

(١) للتعرف على هؤلاء الرحالة الأوربيين يمكن الرجوع إلى كتاب: الرياض في عيون الرحالة، من إصدار أمانة مدينة الرياض، عام ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

و١٨٢٩م[١].. وفي عام ١٨٦٢م تمكن الرحالة الإنجليزي اليسوعي «وليم بالجريف» من الوصول إلى الرياض متخفياً في زي طبيب سوري[٢]، ولكنه كان في واقع الأمر في مهمة مجهولة الهدف للإمبراطور نابليون الثالث، وقد قيل: إن «بالجريف» مارس مهنة الطب لأسابيع عدة في الرياض قبل أن يغادرها، وقد قال بعد عودته: إن هناك رحالة أوربياً كان قد وصل الرياض - قبل وصوله هو إليها بسبع سنوات متخفياً في زي الدراويش، وإن هذا الرحالة أُعدم في الرياض، عندما اكتُشفت هويته الحقيقية ولكن بالجريف لم يعطنا اسم هذا الرحالة لسبب يعرفه هو.

بعد ثلاث سنوات من زيارة «بالجريف» وفي عام ١٨٦٥م على وجه التحديد قام ضابط بريطاني- هو الكولونيل (العقيد) لويس بلي Pelly-. بزيارة رسمية إلى الرياض، مرسلاً من قبل حكومة الهند، وكان في معيته ضابط آخر برتبة «ليفتنانت» (ملازم أول)، وطبيب من البحرية الملكية البريطانية، ومترجم، وطاه برتغالي، وكانت مهمة «بلي» هي مفاوضة الحاكم السعودي[٣] من أجل الحصول على سنده لإنهاء القرصنة، وتجارة الرقيق في الخليج العربي، وقد حظي بلي بمقابلة الإمام فيصل، والذي قال إنه كان رجلاً ضريراً[٤]، تقدمت به السن، وإنه لم يجد ترحاباً من أبناء الإمام، فرحل قافلاً إلى الساحل بعد ثلاثة أيام قضاها في الرياض.

---

(١) لا يعرف رحالة أوربي وصل إلى الرياض قبل عام ١٢٣٤هـ/ ١٨١٩م سوى جورج فورستر سادلير، والذي جاء بعده وليم بالجريف عام ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م.

(٢) وتسمى باسم: سليم أبو محمود إلياس.

(٣) المقصود بالحاكم السعودي: هو الإمام فيصل بن تركي.

(٤) لم يشر بلي إلى أنه ضرير بل قال إنه ضعيف النظر تمامًا.

توفي الإمام فيصل بعد أشهر قلائل من هذه الزيارة، وتلت وفاته فترة صراع مرير بين أبنائه حول الحكم، وفترة حرب أهلية أدت إلى انهيار الدولة.. ولم يخاطر أوربي آخر بالمجيء إلى الرياض إلا بعد مضي أربعين عاماً [١]. وفي هذه الفترة سيطر الأتراك على إقليم الأحساء الساحلي، وتحولت بعض القبائل بولائها إلى إمارات أخرى، واستقل بعضها الآخر... وعندما ولد ابن سعود في عام ١٨٨٠م[٢] كانت البلاد في حالة فوضى تامة، وكذلك كان حال الرياض، تمزقها عداوات الفئات المتنازعة المتنافسة.. ومنازعات جواسيسها، فقد كان لكل فئة مجموعة من الجواسيس تنازع بعضها بعضاً.. وباختصار كان عقد الأمن في الرياض منفرطاً تماماً.

حالة الحرب الأهلية هذه هي التي جعلت من المملكة لقمة سائغةً لابن رشيد، الذي كانت أملاكه تجاورها من الشمال، فاستطاع في السنوات ١٨٨٠م، ١٨٩٠م أن يستولي على الرياض، بعد أن هزم حكامها السعوديين عدة مرات. ولكنه كان يولي أحدهم الحكم فيها، وفي أحيان كان يعين معه حاكماً من قبله عليها- وأخيراً وفي ١٨٩٠م، وبسبب تجدد المعارك بينه وبين السعوديين، قرر ابن رشيد التخلص منهم، فدبر لهم مكيدة كان حاكمه على الرياض ضحيتها الأولى، وذلك عندما اكتشف السعوديون المكيدة، فوقع فيها الحاكم الرشيدي[٣] ... كان ابن سعود أثناء تلك الأحداث في العاشرة من عمره.

---

(١) بل بعد ٤٩ عاماً، حيث كان ذلك في عام ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م، والرحالة هو باركلي رونكيير.

(٢) الأقرب إلى الصحة أن مولد الملك عبدالعزيز هو في عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م. وذلك بناءً على اشتراكه في المفاوضات مع ابن رشيد عام ١٣٠٧هـ، حيث كان عمره فيها أربعة عشر عامًا، وهي سن مقبولة في المشاركة في مثل هذه الاجتماعات المصيرية.

(٣) يشير المؤلف هنا إلى القصة التي كشف سرها الإمام عبدالرحمن وتخطاها، وذلك بمناسبة عيد الأضحى، وقد أشار إليها الريحاني في كتاب: تاريخ نجد، ص١٠٤ .

وجاءت نهاية حكم آل سعود للرياض يوم أن حاصر ابن رشيد المدينة حصاراً شديداً، وقطع أشجار نخيلها، وسمم ماء آبارها، فجاع أهلها وعطشوا، الأمر الذي اضطر الإمام عبد الرحمن الفيصل والد ابن سعود لحمل أهله، وأمتعته، ومغادرة المدينة، حيث اضطر بعد ذلك إلى التجوال في الصحراء قبل أن يستضيفه حاكم الكويت.

وفي أثناء الفترة التي ظل فيها آل سعود خارج الرياض، توفي ابن رشيد وخلفه ابنه[1]، وقد أحكم الابن سيطرته على أراضي السعوديين، واشتد في حكم رعاياهم، للدرجة التي أقعدتهم عن كل محاولة للتخلص من حكمه، وكان واضحاً أنه ليس بإمكان ابن سعود أو أي شخص آخر أن يستحثهم على الثورة على حاكمهم الرشيدي، فقد كانت مهابته شديدة في نفوسهم.. والأمر كذلك، وأمر الثورة مستحيل هكذا، لم يكن أمام ابن سعود الذي خرج مع صحبه من الكويت قاصداً الرياض، إلا أحد أمرين: إما أن يرضى من الغنيمة بالإياب، فيقنع بالفشل، ويرجع إلى والده في الكويت، وإما أن يقوم بمغامرة جريئة، قد تفقده حياته، وهدفه الذي من أجله غادر الكويت، إن هي فشلت، وإما أن تنجح، فتعيد إليه الرياض، وترفع صيته وسمعته في أوساط أهل الصحراء... واستقر رأيه على القيام بالمغامرة... وعدم النكوص عن هدفه- عاصمتهم الرياض.

احتفظ ابن رشيد بحامية، وبحاكم قوي لا يرحم في الرياض، منذ زوال حكم آل سعود عنها، وسيطرته عليها.. ولما كان ابن سعود لا يريد إثارة مخاوف ابن رشيد فيقوم بتعزيز حاميته، ووجوده العسكري في الرياض، فقد

(١) الصحيح أنه بعد وفاة ابن رشيد المعاصر للملك عبدالعزيز في هذه الفترة وهو محمد بن عبدالله ابن رشيد تولى الأمر بعده ابن أخيه عبدالعزيز بن متعب بن رشيد.

اختبأ ورجاله الأربعون[1] في الصحراء، يرقبون الموقف، ويترقبون، ويتحاشون لقاء البدو مخافة أن ينكشف أمرهم، فيهدأ بال ابن رشيد، وربما ظن أن غريمه ابن سعود قد لاقى حتفه في الصحراء.

ولعله كانت هناك دوافع أخرى لاختفاء ابن سعود في الصحراء، فربما كان دافعه دينياً، أو تكتيكياً، ذلك أن شهر رمضان- شهر صيام المسلمين- كان على الأبواب، وكان الأمير ينوي صيامه على الرغم من كونه على سفر، وكان لا يريد مهاجمة الرياض في هذا الشهر الكريم، وأهلها صيام... كما أنه كان يعلم أن أهل الرياض لا ينامون في ليالي رمضان، ولذا فإن أي هجوم على الرياض ليلاً أمر يفتقر إلى الحكمة، وكان إصرار ابن سعود على صيام رمضان وهو في الصحراء، ثم عدم التعرض للرياض في ذلك الشهر، نابعٌ من تدينه العميق، فهو رجل متدين، متمسك بتعاليم دينه، كيف لا، وهو أحد أفراد عائلة لم تحكم أواسط نجد فحسب، بل كانت دائماً هي الحامية، والمتمسكة بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية.. وذلك هو المنطلق الذي حكم تصرفاته كلها.

كانت فترة الانتظار هذه - وفي شهر رمضان بالذات- امتحاناً عسيراً لمقدرات ابن سعود القيادية، اجتازه بنجاح، فقد كان عليه السيطرة على جماعته، وإبقائها متماسكة، موالية له، طيلة هذا الشهر، وهم صيام في جو الصحراء القائظ، وليس لديهم إلا القليل من الزاد والكثير من الوقت، فهم صائمون، باقون في مكان واحد، ليس لديهم ما يفعلونه طوال النهار والليل، وكان على ابن سعود إقناعهم بشتى السبل على البقاء إلى جانبه مهما كانت

(١) الصحيح أنهم ستون كما أشرنا من قبل.

المصاعب، ومهما كانت المخاطر، وأن لا يحولهم ملل الصحراء عنه، فينصرفوا عنه إلى أمور أخرى ... وقد نجح ابن سعود في إقناعهم، مستغلاً مقدراته كلها.. وبقي الجميع معه، حتى انقضى شهر رمضان، وحلت بشائر شوال، وبحلوله بدأ الأمير وصحبه يتحركون نحو هدفهم المنشود.

أكثر من مئة ميل بقليل كانت هي المسافة التي تفصل الرياض عن المجموعة المتقدمة مع ابن سعود، وكان الحماس يملأ نفوسها بعد بقائها مدة طويلة في أطراف الربع الخالي... وكانت تواقة إلى تحقيق هدفها، وقد تم لها ذلك فيما بعد، وبطريقة أصبحت ملحمة من ملاحم تكوين هذه البلاد... وصارت قصة مثيرة، كثيراً ما كان يطلب من ابن سعود أن يرويها لسامعيه فيما بعد.

توقف ابن سعود مع مجموعته عند بئر عين هيت، حيث ارتوت وسقت جمالها، «ستكون هذه البئر مسرحاً لدراما أخرى، ولكنها دراما من نوع آخر، حدثت بعد سبعة وثلاثين عاماً» .. ثم تقدم ابن سعود ومعه بعض من جماعته سيراً على الأقدام، بعد أن تركوا جمالهم وبقية إخوانهم في قلب الواحة، تقدموا في جنح الظلام نحو الرياض، التي كان أهلها ما زالوا يحتفلون بعيد الفطر، وعندما اقتربوا من أسوار المدينة توقف ابن سعود واختار ستة من جماعته، يصحبونه في إنجاز مهمته الصعبة، وأمر الباقين بالبقاء في مكانهم ذاك حتى منتصف نهار الغد، فإن لم يسمعوا منهم خبراً، فعليهم النجاة بأنفسهم إن هم استطاعوا، والرجوع إلى الكويت، لأنه عند ذلك الوقت سيكون إما قد انتصر، أو مات.

تسلق ابن سعود ورفاقه الستة سور الرياض، مستعملين جذوع النخل كسلم.. وكان سور الرياض في حالة مزرية، إذ إن ابن رشيد لم يعتن به،

وتركه مهملاً - دخل الأمير وصحبه المدينة النائمة، وتقدموا خلال شوارعها، وأزقتها الساكنة، والتي كان ابن سعود قد عرفها أيام صباه، تقدموا دون مشقة تذكر.. كل ذلك وابن سعود لم يكن يدري ما هي خطوته التالية. ولكنه كان على يقين أن الله موفقه، ومسدد خطاه... وفي وسط المدينة يقف الحصن (القلعة)[1] التي بناها ابن رشيد، وفي الفضاء قبالة بوابة الحصن يوجد بيت أحكم بناؤه وتحصينه، وهو مقر نساء حاكم المدينة «عجلان» وكانت أبواب الحصن، والبيت مغلقة محكمة- وبجوار بيت نساء عجلان بيت آخر، هو بيت لبائع ماشية يدعى «جويسر» ... طرق الأمير باب هذا البيت، فأجابه صوت امرأة: «من أنت» وساعتها تذكر ابن سعود أن لجويسر هذا ابنتين.

أجاب ابن سعود من خلال الباب المغلق «رجل من رجال الأمير عجلان أريد من رجلك أن يشتري لنا بقرًا صباح الغد».

أجابت المرأة: «خسئت يا شبه الرجال، ما جئت تبغي البقر يا فاجر، بل جئت تبغي الفساد» .

قال ابن سعود: «لا والله، ليس هذا مأربي: بل أبغي صاحب هذا البيت فإذا لم يخرج إليّ الآن فالأمير يقتله صباح الغد».

سمع جويسر هذا التهديد، ففتح الباب، وانقض عليه ابن سعود فقبضه، وأمره أن يسكت... وفي تلك اللحظة تعرفت الفتاتان على عبدالعزيز ابن حاكمهم المنفي في الكويت، وبدأتا تحييانه... ولكن عبدالعزيز أمر رجاله

(١) هذا الحصن هو المعروف بالمصمك، وقد بناه عامل ابن رشيد على الرياض عام ١٣١٢هـ.

بإدخالهما إلى غرفة المخزن، وقفلها عليهما... وفي غمرة هذه الأحداث، انتهز جويسر الفرصة، وهرب[1].

كانت خطة ابن سعود بسيطة، وهي أن يتسلق هو وصحبه سطح بيت جويسر، ومنه يقفزون إلى سطح بيت عجلان، ولكن الفجوة كانت بين البيتين كبيرة، فقرروا القفز إلى سطح بيت آخر، وفيه وجدوا صاحب الدار وزوجته نائمين، فربطوهما، وكمموا فم المرأة، وهددوهما بالقتل إن هما أبديا صوتاً، أو حراكاً - وانتظر ابن سعود ورفاقه برهة من الزمن يروا إن كان جويسر قد نبه أهل البلد النائمين، ولكن بدا كل شيء هادئاً، وعندها أرسل ابن سعود اثنين من رجاله ليحضرا بقية الرجال المختبئين في وسط أشجار النخيل خارج المدينة.

تسلق الرجال على أكتاف بعضهم إلى منزل عجلان الذي كان يعلو بقية المنازل المجاورة له بطابق واحد، واستطاعوا كسر باب السطح، ومنه نفذوا إلى داخل المنزل، حيث تمكنوا من القبض على خدم البيت واحداً واحداً، وتوقف الكل أمام غرفة ظنوها غرفة نوم عجلان، دخلها ابن سعود حاملاً بندقية، يتبعه أحد رجاله، وهو يحمل شمعةً يضيء بها ظلام المكان، وداخل الغرفة وجدوا كتلتين بشريتين نائمتين، ظنوهما عجلان وزوجته، ولكن تبين أنهما زوجة عجلان وأختها... فوخزهما ابن سعود، فقامتا مذعورتين تصرخان فقال لهما الأمير «كُفَّا، أنا عبد العزيز».

تعرفت عليه زوجة عجلان إذ إنها كانت من أهل الرياض، وسألته مذعورةً «من تبغي» - أجاب : «أبغي زوجك، أيتها المرأة التي لا تستحي، يا من تزوجت رشيدياً».

(١) هذه القصة بتفاصيلها كما رواها الملك عبدالعزيز، انظرها في: تاريخ نجد، للريحاني، ص١٢٤.

قالت المرأة: «لست امرأة لا تعرف الحياء، إنما تزوجت رشيدياً، عندما غادرت الرياض، وتركتنا... ما الذي أتى بك إلى هنا؟».

أجاب: «جئت باحثاً عن زوجك لأقتله».

قالت: «إني أحب أن تقتل كل من في البلد من شمر إلاّ زوجي، ولكني أخشى أن يقتلوك يا عبدالعزيز... ثم كيف تصل إليه، وهو ينام في الحصن في حراسة ثمانين رجلاً، وإذا ما اكتشف أمرك، فلن تستطيع إنقاذ نفسك، والهرب من هذه الديار».

سألها ابن سعود متى يغادر عجلان الحصن؟- فقالت: «إنه لا يخرج إلا بعد طلوع الشمس بساعة».

وهنا أدخلها عبدالعزيز - هي وأختها والخدم إلى غرفة وأقفلوا الغرفة.. وبدأ هو ورجاله ينخرون فجوة في الحائط الطيني ، ليتسرب عبره بقية الرجال الموجودين في المنزل المجاور... وعندما اكتمل جمعهم، قرروا أن يرتاحوا برهةً من الزمن، فأكلوا شيئاً من التمر، وشربوا بعضاً من قهوة «عجلان» - ثم صلوا، وناموا، وهم لا يدرون ماذا سيفعلون بعد ذلك - فقد سلكوا طريقاً لا رجعة عنه[1].

ظل الرجال وهم في انتظار طلوع الفجر، يفكرون في طريقة يستدرجون بها الحاكم إلى الدخول إلى المنزل ليقتلوه فيه، وعلموا أن إحدى نسائه هي التي تفتح باب المنزل له،، فقاموا باختيار أحد الرجال - وكان صغير الجسم- وألبسوه ثياب امرأة، وأوقفوه وراء الباب، ليدخل عجلان عندما يقوم بطرق الباب.

(١) هذا الحوار بتفاصيله يمكن الرجوع له في تاريخ نجد للريحاني، ص١٢٥، ويلاحظ أن المؤلف هنا قد أضاف بعض الحوادث التي لم ترد عند الريحاني، مع أنه المصدر في ذلك.

صعد بقية الرجال إلى الغرفة العلوية، ليتمكنوا من رؤية باب الحصن من خلال الفجوة الموجودة في تلك الغرفة- وكان باب الحصن مصنوعاً من نوع من أنواع الخشب المتين، وفي قلبه باب صغير، ارتفاعه حوالي قدمين، ومصمم بحيث لا يمكن ولوجه إلا بإدخال رأس الداخل أولاً - مما يعرض عنق ذلك الداخل إلى سيف الحارس إذا تبين أنه داخل غير مرغوب فيه.

بعد أن رفع الأذان من فوق مآذن المدينة، صلى ابن سعود ورجاله صلاة الفجر، وظلوا في أماكنهم متربصين، ومنتظرين، حتى أشع ضوء الصباح فعم ساحة الحصن كلها وعندها انفتح باب الحصن، وبدأ الخدم يخرجون خيل الحاكم إلى الساحة... لم يحتمل ابن سعود منظر الباب وهو مفتوح. فقفز، وانطلق جارياً نحوه، وهو مصمم على إبقائه مفتوحاً، وكان أثناء ذلك يصيح طالباً من رجاله المسلحين بالبنادق أن يحموا ظهره.. وساعتها فقط ظهر «عجلان» مع حوالي اثني عشر من رجاله، فمروا من خلال الباب، ثم أغلق الباب.

كرَّ ابن سعود هاجماً عبر ساحة الحصن، التفت عجلان ورجاله عندما سمعوا الضجة، وعندما رأوا ابن سعود وهو يعدو نحوهم، أسرع الحراس نحو باب الحصن، فأقفلوا أبوابه الجانبية الصغيرة، كان عجلان يقف بمفرده عندما وصل ابن سعود إلى الباب، فامتشق سيفه، واندفع نحو ابن سعود، الذي كان ممسكاً ببندقيته، وساعتها غطى ابن سعود وجهه بذراعه، وأطلق النار، فسمع صوت السيف وهو يسقط من يد عجلان، فعلم أنه قد أصابه. اندفع عجلان نحو باب الحصن الجانبي، وحشر نفسه فيه محاولاً الدخول منه، فقبض الأمير رجليه، وأخذ يجره نحوه ليمنعه من الدخول، في حين كان رجال عجلان يجرونه إلى الداخل من ذراعيه.. وهنا ركل عجلان ابن سعود

ركلة شديدة في بطنه، أفقدته وعيه، ففك رجلي عجلان، ولكن قبل أن يقفل الحراس الباب الصغير، أسرع الأمير عبد الله بن جلوي ابن عم ابن سعود، إلى الباب فحشر نفسه فيه، ونفذ إلى الجانب الآخر، وهو شاهر سيفه في وسط الحراس الذين ارتبكوا، ولم يدروا ماذا يفعلون، وتبع ابن جلوي آخرون من رجال ابن سعود إلى داخل الحصن، وفتحوا باب الحصن الكبير، حيث تمكن بقية الرجال من الدخول ... ودارت معركة دموية بين الحراس، وهذه المجموعة القليلة من رجال ابن سعود... قُتل بعض الحراس، وسقط بعضهم من فوق أسوار الحصن... وتمكن ابن جلوي أثناء هذا العراك من قتل عجلان... وانتهت المعركة باستسلام حوالي ثلاثين أو أربعين من المدافعين عن الحصن... وقبل انقضاء صباح ذلك اليوم أرسل ابن سعود من يعلم أهل الرياض بأن مشيئة الله قد قضيت، وأن بيت آل سعود أصبح هو البيت الحاكم في الرياض[1].

(١) يمكن الرجوع لمعرفة التفاصيل بشكل أدق إلى: تاريخ نجد، للريحاني، ص١٢٦.

٢- «ابن سعود في حالة حرب»

عنى استرداد ابن سعود للرياض، امتلاكه لمدينة ستكون هي نواةً لمملكته. فقد تطاير خبر سقوطها، وهزيمة ابن رشيد، في كل أرجاء الصحراء، فأدخل السرور على نفوس البدو وغيرهم ممن كانوا يعانون من سيطرة وطغيان ابن رشيد، وأيقن الكل أن قائداً سعودياً جديداً قد ظهر، وأنه لا محالة سيقود أسرته مرة ثانية، وطفق شيوخ الصحراء يفدون على الرياض مهنئين ومرحبين بهذا القائد الجديد، ومقدمين له ولاء الطاعة.

ولأن الصحراء لا تعرف الحدود المرسمة الثابتة، فقد امتدت أملاك ابن سعود الجديدة، لتشمل البوادي والحضر، فدانت له القبائل في الصحراء، وكان واضحاً منذ البداية أنه لا مخرج إلى البحر، ولا مرفأ لهذه الأملاك الجديدة؛ فهي أراض محاطة بالصحراء من كل جانب، وأن الأعداء يحيطون بها، فها هو عدوها اللدود ابن رشيد، جارها إلى الشمال، يناصبها العداء.. ولعله كان أشد أعدائها عداوة وحرباً لها.

في الغرب كان الشريف حسين يحكم الحجاز[1]، وكان البيت السعودي،

(١) الصحيح أن الذي كان يحكم الحجاز في فترة استرداد الملك عبدالعزيز للرياض، هو الشريف عون الرفيق.

وأنصاره أصحاب دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية، قد سيطروا قبل حوالي قرن من الزمان على الحجاز، وعلى مدينتيه المقدستين (مكة- والمدينة)، ولكن سيطرتهم تلك لم تدم، إذ تمكنت القوات المصرية- المؤتمرة بأمر السلطان العثماني- من إخراجهم من الحجاز.. وكان الظن السائد في أوساط أهل الحجاز وغيرهم، أنهم أكثر تحضراً من سكان أواسط الجزيرة العربية، وكان موسم الحج موسماً دينياً، واقتصادياً مهماً لأهل الحجاز عامة وأهل مكة خاصةً، فهو مورد اقتصادي، وسبيل من سبل كسب عيشهم، وهو نافذتهم على العالم الإسلامي، فعن طريقه يعرفون أخبار وآمال ذلك العالم.. ومن ثم كان اهتمام حكام الحجاز بالحج وحرصهم على رعاية وخدمة الحجيج، والأماكن المقدسة، وكانوا دائماً لا يرتاحون لأنصار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية، كانوا يخافونهم، وينفرون منهم.

حظيت الدولة السعودية في الماضي بمنفذ عريض وصلها إلى ساحل الخليج العربي، وامتد هذا المنفذ على طول الطريق الممتد من الكويت إلى البر الرئيسي المقابل للبحرين، ولكن هذا الجزء من الأرض-المعروف باسم الأحساء[1]- كان تحت سيطرة الأتراك عندما استرد ابن سعود الرياض، وكان الأتراك أشد حرصاً على إقليم الأحساء بفضل ما يدره عليهم من ضرائب على تجارة العبور المارة عبره من الهند، والشرق، والتي كانت تشمل الاتجار في سلع مثل الحرير، والأرز، البن، السكر، والبنادق، والذخيرة.. وإلى الشمال من إقليم الأحساء تقع مشيخة الكويت الصغيرة المستقلة، التي كانت الصديقة

(١) تقع الأحساء في الجزء الجنوبي من الساحل فقط وليس الساحل بأكمله.

الوحيدة لآل سعود - ولكنها لم تكن في واقع الحال، أكثر من ميناء بحري، تحيط به عدة أميال مربعة من صحراء قاحلة.. وإلى جنوب الأحساء، وعلى جزء من الخليج والذي كان معروفاً للأوربيين باسم «ساحل القراصنة»، كانت تقوم مشيخات عربية صغيرة، ذات طابع حربي لا يتناسب مع حجمها، وكانت تنفر من كل تدخل في أمورها.

وفي الجنوب - وفيما وراء رمال الربع الخالي، كانت توجد بلاد أخرى هي: حضرموت، ومسقط، واليمن، وميناء عدن البريطاني، وكانت كلها بمثابة عالم آخر، لا يعرف عنه أهل أواسط الجزيرة إلا النزر اليسير، فصحراء الربع الخالي تقف حائلاً بينه وبينهم.. فهي حد طبيعي فاصل، أكثر فصلاً من البحر.

ووراء هذه الحلقة من الأعداء، كانت هناك قوتان أجنبيتان تؤثران على مجرى الأحداث في الجزيرة العربية، هما:- الإمبراطورية العثمانية، والإمبراطورية البريطانية.. ولم تكن الإمبراطورية العثمانية ضعيفة في آسيا، كما ظنها البعض، فهي على الرغم من انحسار قوتها وسطوتها في أوربا، والتي أوصلتها في القرن السابع عشر الميلادي إلى أبواب فينا، إلا أن أملاكها ما زالت ممتدة في آسيا- عبر جزيرة العراق- إلى الخليج العربي، وعبر أرض فلسطين إلى حدود مصر، وحتى في الجزيرة العربية لم تكن سيطرتها محصورة في إقليم الأحساء فقط، وإنما امتدت إلى الحجاز، حيث كان شريف مكة تحت هيمنتها، كما كانت اليمن ضمن أملاكها، وابن رشيد حليف لها. تطوله أموالها وهباتها.. وكان ابن سعود محاطاً بكل هؤلاء التابعين للدولة العثمانية، أو الدائرين في فلكها.. ولم تكن دولة آل عثمان تلك ذات سطوة سياسية، أو حربية آنذاك، ولكن نفوذها الديني كان عظيماً على المسلمين،

فسلطانها العثماني، كان هو خليفة المسلمين أيضاً، وكان يتمتع باحترام المسلمين، وولائهم الأدبي والمعنوي- وكان ابن سعود مدركاً لكل ذلك، وعلى علم تام بموقف الدولة العثمانية منه، فقد تحدى حليفها ابن رشيد، واسترد الرياض منه... وكان يأمل في إقامة حكم مستقل عنها، ثم هو صاحب دعوة سلفية لا تعترف بسلطان الخليفة العثماني... وكل تلك عوامل لا تزكيه عند حكام الدولة العثمانية.

أما نفوذ الإمبراطورية البريطانية في منطقة الجزيرة العربية، فكان أكثر فطنةً ودبلوماسية، وأقل عداءً، فالجزيرة العربية كانت فقيرة فقراً أزهد البريطانيين فيها، فلم يفكروا في استعمارها، وإنما انحصر اهتمامهم في حماية الطريق إلى الهند، وإلى ثروات الهند- وإن ادعى بناة الإمبراطورية البريطانية في كثير من الأحيان أن غرضهم هو حماية حقوق بعض البشر ضد أعدائهم الطبيعيين- من ذلك دعواهم أن أساطيلهم الملكية إنما كانت تجوب مياه الخليج العربي منذ القرن الثامن عشر الميلادي بغرض إنهاء نشاط القراصنة في تلك المياه، ومن أجل إيقاف تجارة الرقيق القادمة عبرالخليج من شرق أفريقيا... وإن ذلك هو ما دعاهم إلى إمضاء اتفاقيات مع شيوخ الساحل الخليجي منذ حوالي ١٨٢٠م كانت نتيجتها بسط الأمن والاستقرار في تلك الجهات، وتغيير اسم الساحل من «ساحل القراصنة» إلى الساحل المتصالح.

ظلت هذه الاتفاقيات معمولاً بها حتى بدأت بعض الدول الأوربية تهتم بأمر الخليج، في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، فمثلاً بدأ الألمان مشروعهم الطموح، خط برلين - بغداد الحديدي الذي كان مخططاً له أن ينتهي على ساحل الخليج قرب الكويت. كذلك بدأ الروس والفرنسيون

محاولاتهم للحصول على امتيازات لبناء مخازن للفحم لأساطيلهم. وخوفاً من هذه المنافسة الأوربية قوى البريطانيون من اتفاقياتهم مع الحكام في الخليج (ما عدا الأتراك في الأحساء)، حيث وافق أولئك الحكام على أن لا يؤجروا أو يمنحوا أي جزء من أراضيهم لأي دولة أخرى غير بريطانيا، مقابل حماية بريطانيا لهم من أي اعتداء خارجي... وكان ابن سعود يدرك جيداً أن تلك الاتفاقيات ستقف حائلاً بينه وبين مشيخات الخليج إن هو حاول الاعتداء على بعضها... وأن بريطانيا لن تتعرض له مالم يهدد حلفاءها مشايخ الخليج.

والواقع أن ابن سعود لم يتجه ببصره بعيداً تجاه الخليج بعد استرداده للرياض، كما أن استرداده لعاصمة آبائه الأولى لم يكن ليثير اهتمام لندن أو إستامبول في هذه الفترة الباكرة، وكان اهتمام الأمير منصباً آنذاك على استقبال شيوخ القبائل وزعمائها القادمين إلى الرياض لتقديم التهاني، وفروض الطاعة... ولم يكن خضوع أولئك الشيوخ الكبار لهذا الأمير الشاب ذي الواحد والعشرين ربيعاً بالأمر الغريب على التقاليد العربية، فمشاركة الشباب، وصغارالسن في الأمور العامة، وفي المعارك الحربية، والانقياد لهم أمر عادي لدى العرب، فالجيش المصري مثلاً الذي جاء لحرب الدولة السعودية الأولى كان بقيادة يافع عمره ستة عشر عاماً - هو إبراهيم ابن محمد علي باشا حاكم مصر- ولكن أن يسترد ابن سعود وهو في هذه السن الصغيرة وبمفرده عاصمة آبائه وملكهم- فذلك عمل خارق، جعل منه بطلاً من أبطال الصحراء، ومثاراً لإعجاب الناس، ومن ثم عرضة لمخاطر الإطراء والتزلف، ولكن شخصية ابن سعود لم تكن من هذا النوع الذي يغريها ويعميها التزلف، فقد ظل محتفظاً بتوازنه، ولم ينزلق وراء تلك الإغراءات... وتمثل ذلك في اتخاذه لإجراءين:

أحدهما: أوضح مدى حسن تدبيره، وفهمه، والآخر: أبان حكمته- فقد شرع في إجرائه الأول في إعادة بناء وترميم أسوار الرياض المتهالكة، استعداداً لأي هجوم مضاد متوقع، وأما الإجراء الثاني فهو: أنه أرسل في طلب أهله من الكويت، والده، وأمه، وإخوته، وزوجه وولديه.. وكانت هذه الخطوة تأكيداً، وتطميناً لأهل الرياض أنه إنما جاء ليبقى، هو وأهله، وأن حكمه أصبح الآن أمراً باقياً وواقعاً كذلك، خاصة بعد الترحاب الذي وجده والده الإمام عبد الرحمن من أهل الرياض عند وصوله إليهم... وقد تأكد للجميع استباب الأمر للأمير الشاب، عندما قام والده بالتنازل له عن الحكم، وبعد أن قلده سيف آل سعود التاريخي- رمز سيادة العائلة الذي توارثته جيلاً بعد جيل.

لم يبق ابن سعود طويلاً داخل مدينة الرياض، وإنماخرج منها كإجراء تكتيكي؛ ذلك أنه لم يرد أن تكون قواته كلها داخل الرياض إذا ما تعرضت المدينة للحصار - كما حدث سابقاً- وأراد أيضاً أن تكون له حرية الحركة، وفرصة مقاومة الحصار وهو خارج أسوار المدينة... ولكل هذه الأسباب ترك والده الإمام حاكماً على الرياض، وخرج هو متجهاً صوب الجنوب إلى جهة الوديان والواحات، والبلدان الصغيرة ذات الأسوار الواقعة بين الرياض، والربع الخالي[1]، ففي هذه المنطقة كان حكم ابن رشيد ضعيفاً. وفيها كان ابن سعود يود أن يجمع، ويدرب، وينظم لنفسه جيشاً.

كان ابن سعود كثيراً ما يذكر تلك الأحداث الماضية، ويحن إليها، فبعد مضي خمسين سنة عليها وعندما تقدمت به السن، وصار ثرياً.. كان يذكر تلك

(١) وهذه البلاد هي الخرج والحوطة والحريق وما والاها جنوباً.

السنين التي عاشها في الصحراء عيشة البدو القاسية، كأسعد سني حياته، ويصرح بذلك أمام سامعيه وزواره،ولم يكن ذلك من باب مفاجأة سامعيه، ببساطته، وبساطة ذوقه، على الرغم من مظاهر العظمة والأبهة التي تحف به- كما يفعل بعض العظماء أحياناً- بل كان صادقاً في قوله ذاك، فقد كانت حياته دائماً حياة صارمة خالية من البهرج، والزخرف وكانت العراقة والتقشف من طبعه، فقد كان رجلاً بدوياً قلباً وقالباً قريباً من البدو، وهم قريبون منه طيلة حياته، فهو يعرفهم، ويفهمهم، ويألفهم.

فالبدو قوم أفذاذ، منقطعو النظير، فهم أهل صحراء، يرجعون بنسبهم إلى إسماعيل بن إبراهيم[1]، حياتهم ثابتة لا تتغير، مثلها مثل البلدات ذات المباني الطينية، المبعثرة هنا وهناك في الصحراء، وما زال مجتمعهم في القرن العشرين هو ذلك المجتمع البدائي نفسه الذي تمزقه الحروب، والذي ورد ذكره في صحف موسى عليه السلام... حياتهم هي حياة آبائهم وأجدادهم الماضية، يعيشونها كما عاشها أولئك تماماً.

هم رعاة يربون الإبل، والخيل، والضأن- حياتهم كلها سعي وراء الماء، والكلأ الذي تنبته أمطار الصحراء الشحيحة هنا وهناك، ومن ثم فأرض الكلأ متغيرة، متبدلة دوماً، فليس للكلأ مكان دائم يؤمه البدو، هم تارة يرعون في هذه الجهة وأخرى في غيرها، حركة دائبة ، رحَّل لا يقر لهم قرار، طعامهم نزر يسير، وماؤهم دائماً قليل، قد يسد ظمأهم في بعض الأحيان، ولكنه لا يكفي لسد حاجاتهم البدنية الأخرى فقد لا يغتسلون، أو يغسلون ثيابهم لفترات قد تطول، هم دوماً فقراء ، الرعي لا يجلب لهم الثراء، وطريقهم إليه

قد يكون في غاراتهم وغزواتهم، ولاؤهم في كل أمورهم القبلية لشيخ قبيلتهم، الذي يشيخونه عليهم إما لشجاعته، أو لحكمته ، أو ثرائه، أو لسمعته الطيبة، أو لكل هذه الخصال جميعاً، أو ربما لأنه ابن شيخهم السابق؛ ومع ذلك فالبدو لا يلتزمون دائما بقرارات شيوخهم. ففي أمورهم الشخصية، لا يحترمون أي سلطة بشرية، أو قانون، هم سواسية فيما بينهم، ولكنهم أرفع من غيرهم من البشر، والبدوي يفعل ما يظنه ويراه هو صحيحاً، أو مايكون في مصلحته... ولقد حاول النبي محمد ﷺ، في القرن السابع الميلادي ترويضهم، وتعويدهم على الخضوع للقانون والسلطة، ولكنهم ظلوا حتى قرننا العشرين هذا منفلتين أحياناً كثيرة عن حكم القانون والنظام.

وعلى الرغم من كل ذلك فللبدوي شعور قوي، وتمسك شديد بالشرف فهم مثلاً يغيرون على بعضهم وعلى غيرهم، بغرض النهب والسلب، والغنائم، ولكنهم يحتقرون من يقوم بسرقة الأشياء الصغيرة التافهة، قيمة الحياة عندهم قليلة، ولكنهم لا يتعمدون القسوة، فإذا ما قُتِلَ أحدهم فلعائلته عرفاً إمَّا القصاص من القاتل، أو أخذ عدد كبير من الجمال كدية مدفوعة لهم؛ ولذا فالقتل العمد نادر بينهم، السطو على القوافل المارة بأراضيهم أمر صحيح لا غبار عليه، وهو في عرفهم لا يختلف عن رسوم الجمارك، أو رسوم العبور الذي تأخذه الدول المتحضرة الآن، والبدو عادةً لا يتعرضون للقوافل التي يتعهد شيوخهم بحمايتها، وإذا ما تعهد البدوي بحماية أي مسافر، فإنه يحميه ويدافع عنه بنفسه، وإن لم يفعل يلحق به العار أمام البدو الآخرين.

عاش البدو عبر القرون عيشة الكفاف، عيشة قاسية، لا راحة فيها، وإذا ما سنحت الفرصة فإنهم لا يتوانون عن الاستمتاع بوليمة ذات لحم وأرز، وهذا التناوب بين الوفرة والحرمان سمة تسم كل أوجه حياتهم.. وقليل منهم كان

يعرف الكتابة والقراءة عند ظهور ابن سعود، فهم قوم يعتمدون على الذاكرة، فقد وصلهم التراث العربي- من شعر وفلسفة- شفاهةً، وللبدو غرام بالحكايات والقصص، فهم يروونها، ويتفننون في روايتها إذا ما جلسوا يسمرون حول نيران مخيماتهم ليلاً، وهم يقصون وينشدون قصص البطولات، والشعر الخيالي، والهزلي، وغير الهزلي.

وفوق هذا وذاك فالبدو جد فخورين بأنفسهم، وبمهاراتهم الصحراوية، وكبرياؤهم، هذا يضفي عليهم سيماءً من نبل الخلق، ويزيد من ثيابهم المنسابة الفضفاضة، وروعة وبهاء جمالهم وإبلهم.

ولعل كل هذه المظاهر، إضافة إلى شعورهم وحسهم الدافق بالشرف، وبساطة حياتهم، هي التي جعلت قلة من زهاد المكتشفين يعجبون بهم إعجاباً يكاد يكون رومانسياً، ويبادلونهم الثقة والمحبة.

هؤلاء البدو هم الذين سيكونون مادة جيش ابن سعود، فالحرب في الصحراء ليست كباقي الحروب التي ابتدعها بنو الإنسان، فهي ثابتة، لم تتغير منذ العهود القديمة، والجيش الذي جمعه ابن سعود شبيه بالجيوش المذكورة في التوراة، والبدعة الوحيدة التي ميزت جيشه ذاك عن تلك الجيوش القديمة، هو استعمالهم للأسلحة النارية، بعد أن أدركوا مدى فاعليتها... فهي وإن كانت من صنع الكفار، وإن كرهها بعض البدو من أنصار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية، فهي ذات فاعلية مؤثرة في المعارك ... وقد حذق البدو استعمال تلك الأسلحة، وأصبحوا ذواقين لها، عارفين بها كمعرفتهم بإبلهم، وبسيوفهم ورماحهم.. ولكنها كانت أسلحة بالية. فقد كانت بنادقهم قديمة عفى عليها الزمن، كما كان الحصول على الذخيرة أمراً صعباً، ومكلفاً، وهي فوق هذا وذاك ثقيلة الوزن لا يمكن حملها على ظهور الجمال

لمسافات بعيدة.. وكانت كل تلك عوائق تقف في طريق تحديث حروبهم وجعلها حروباً تماثل الحروب في معناها الحديث.

المهارة في قيادة الجيوش القبلية تعتمد على عنصر المباغتة في مهاجمة العدو، وليس هذا بالأمر اليسير، إذ إنه من الصعوبة بمكان أن يختبئ جيش في الصحراء، فهي أرض مكشوفة، ثم إن حركة الجيش مرتبطة بأماكن آبار الماء، فهو يتحرك من بئر إلى أخرى، تاركاً وراءه آثاراً تدل عليه مثل آثار سير الإبل، وبعرها، ومواقد نيرانهم وما شابه ذلك.. فالجيوش الصحراوية دائمة المسير، وأعداؤها من ورائها دائمو الاقتفاء لأثرها.. وكل تلك أمور قد تكون ممتعة، ومثيرة لقادة الجيوش، ومعاونيهم من رواد ومكتشفين، وقصاص أثر، ولكنها بالنسبة للجنود أمر ممل، لا فائدة، ولا عائد منه، ولعل ذلك هو العامل الذي يجعل القائد الناجح هو ذلك الرجل الذي يستطيع السيطرة على جنده، بتوفير عنصر الإثارة، والتوقع في نفوسهم، وطرد الملل والسأم عنها، فإذا ما مل البدوي، وأصابه السأم، انفك عن الجيش، وقفل راجعاً إلى أهله. وكذلك يفعل إذا ما شعر بأن جانبه سيكون الجانب الخاسر في المعركة... هذا العرف البدوي هو الذي يجعل الحرب في الصحراء محتملة، ومقبولة نوعاً ما.

وإذا ما بدأت المعركة، فكل رجل ونفسه، ومن ثم فليس للقائد إلا دور يسير في نتيجة المعركة، اللهم إلا بث روح القتال، والتضحية، والحماس في نفوس جنده.. في خطب يلقيها فيهم قبل بدء المعركة... والتي تبدأ بأن يهاجم الجيشان بعضهما بعضاً وهم فوق ظهور الإبل، والخيل العربية، وفي أثناء ذلك الهجوم، يصيح المهاجمون صيحاتهم للحرب، فلكل مهاجم صيحة، يقول فيها: أنا ابن فلان- ذاكراً اسم أبيه، أو اسم أحد أسلافه المحاربين، المشهود لهم بالشجاعة - أو يقول «أنا أخ فلانة» ذاكراً اسم أخت محببة إليه.. وكأن في ذكر

اسمها تذكيراً له بضرورة الدفاع عن شرفها.. فيعطيه ذلك التذكير شجاعة وإقداماً.. وإذا ما احتدم القتال، وثار الغبار وعلا الضجيج، رأيت الرجال يطلقون النار من فوق ظهور دوابهم، ومن مسافات قريبة.. ويستمرون في إطلاق النار حتى تفرغ البنادق العتيقة، فيبدؤوا في حشوها بالبارود من جديد... وإذا ما نفدت الذخيرة، تراهم يسلون سيوفهم استعداداً للهجوم مرة ثانية وتراهم إذا ما هجموا يغطون أسفل وجوههم بلباس رأسهم حتى لا يدخل الغبار إلى رئتيهم، وحتى يخفوا وجوههم، فلا يتعرف عليهم أحد، فالتعرف على رجل قتل رجلاً آخر - ولو في معركة- قد يؤدي إلى ثارات بين عائلتيهما.

ليس لجند الجيش البدوي زي خاص بهم، ولذا إذا ما اختلط الجيشان، وتطاحنا، يصعب على المرء معرفة العدو من الصديق اللهم إلا إذا تقهقر أحد الجيشين، ولاذ بالفرار، أما إذا تساوت قوة الجيشين، فعادة ما يختلطان ببعضهما، فتعم الفوضى، ويصبح من المستحيل الفصل بينهما، وفي هذه الحالة قد يضطر كل جانب إلى التقهقر لإعادة تنظيم صفوفه، ومعاودة الهجوم من جديد... والقتال عادة يستمر لفترة قصيرة، وهو قتال مثير، أكثر من كونه خطيراً، وهو على الرغم من الضجيج الذي يصحبه، والغبار، والدخان، فإنه عادةً ما يخلف عدداً قليلاً من المصابين.

لعل ابن سعود كان وهو في طريقه الطويل صوب الجنوب، أو وهو متسلق على رمال الصحراء ليلاً لينام- لعله كان في أثناء ذلك كله يفكر في طريقة يستطيع بها أن يجعل البدو ينضمون له ويحاربون معه... فلابن سعود مزايا عدة، بعضها محسوس ملموس، وبعضها غير ملموس، وكلها تؤهله لقيادة البدو، وإقناعهم بالانضمام إليه، فمثلاً هو أمير ذو نسب نبيل قديم، لا ينكره أحد، وهو من بيت له سمعة، وشهرة وسط القبائل، ولكن سمعة آلت إلى

نسيان، وإن كانت حادثة استرداد الرياض قد أحيتها في النفوس من جديد، فإنها لا محالة ستُنسى ثانية ما لم تتبعها حوادث مثيرة أخرى... وكان ابن سعود يدرك تماماً أنه إذا ما أحسن استغلال كلا الميزتين- كرامة النسب، وسمعة البيت السعودي- فإنه سينجح في إقناع البدو للانضمام إليه، والقتال في صفه.

كان لابن سعود ميزات أخرى محسوسة... فهو رجل طويل القامة، ويحظى بتفوق جسماني ملحوظ، وتلك ميزة لها وزنها، خاصة وأن معظم البدو ذوو أجسام صغيرة، فقامته الممتدة لستة أقدام، وثلاث بوصات، وجسمه المتناسق ذو العضلات القوية، وقوة احتماله، وتفوقه في الرماية والركوب، تجعله يتفوق على معظم الرجال الموجودين معه، وتجعله دائماً ذا حضور محسوس، لايمكن لأحد تجاهله.. ثم إن وسامته، وعينيه الداكنتين الصارمتين، وأنفه البارز، وشعره الأسود، ولحيته الخفيفة، وشفتيه المكتنزتين، تجعل منه مثالاً حياً للرجولة العربية، وكان ابن سعود مدركاً لهذه الميزات التي كثيراً ما استغلها.

ليس هناك أحد الآن يستطيع أن يصف لنا الجاذبية التي تمتع بها ابن سعود في شبابه.. ولكن كل الذين التقوه في مستقبل أيامه- عندما تقدمت به السن- من العرب والأجانب تحدثوا عن حضوره الملوكي القوي.. فقد تمتع بحضور محسوس، فكل الذين حوله مخلصون له معجبون به، حتى الذين تعرضوا لعقابه كانوا من أخلص أنصاره، والذين ناصبوه العداء هم أناس لم يقابلوه، أو يعرفوه من قبل، ولو عرفوه لتخلصوا من عدائهم له، وأصبحوا من أتباعه، ... وقد عرف ابن سعود بابتسامته الساحرة، الآسرة، وعرف أيضاً بنوبات غضبه الشديد في بعض الأحيان.. وقد وصفه أحد الأمريكيين

العاملين في مجال النفط - بعد مقابلة معه- بأنه رجل عظيم في عدله، عظيم في شفقته وعطفه، ولكنه شديد في غضبه، بشر ككل البشر، له سيئات البشر وحسناتهم، ولكنه أعظم وأكبر من معظم البشر.

ويمكننا إذاً أن نتخيل قوة شخصيته، ومزاياه الشبابية الأخرى، وكذلك قوته، ورجولته، ولنا أن نتخيل عظم جاذبيته، وأن نحكم عليها بما حققته من إنجازات - قد تفوق طاقة معظم البشر- وهي مقدرته الفذة على توحيد البدو أكثر أمم الأرض فرقةً وشتاتاً .

لم يكن لابن سعود مادياً ما يقدمه لأتباعه البدو، كان في مقدوره إطعامهم، ولم يكن له من الإمكانات المادية ما يمكنه من دفع الأموال لهم.. فقد كانت خزينته في تلك الفترة فارغة دائماً. ولم يكن باستطاعته أن يعدهم الغنائم في المعارك التي قد يخوضونها معه، فالنصر دائماً بيد الله، ينصر من يشاء.. ثم إن الحروب مهما كانت أسبابها -دينية أو سياسية- فهي عند البدو لا تعدو أن تكون غارات كبرى عائدها الأكبر بالنسبة لهم هو الغنائم، فإذا ما تحقق لهم ذلك الهدف، انصرفوا عن أرض المعركة ولو في ساعة النصر، عائدين إلى ديارهم محملين بالغنائم والأسلاب، ومن ثم فإن النصر في معارك الصحراء هو دائماً نصر غير حاسم، أو نصر نهائي، والبدو هم الذين يقررون بأنفسهم- دونما تدخل من قائد، أو أحد آخر- إن كانت المعارك التي سيخوضونها معارك ذات فائدة لهم أم معارك خاسرة.

وعلى الرغم من كل هذه العوائق، فقد تحلى ابن سعود بأعظم ميزاته وأهمها، وهي عقيدته الراسخة في أن الله سبحانه وتعالى يقف إلى جانبه، وهو دائماً ناصره على أعدائه، ومن ثم لم تكن النظرة إلى استرداده للرياض

على أنها مغنم دنيوي مادي فقط، بل كانت النظرة إليها على أنها بداية لحرب دينية مقدسة.

الشيخ المصلح محمد بن عبد الوهاب - هو الذي قام بأمر الدعوة السلفية في نجد في القرن الثامن عشر الميلادي.. وكان هدفه الأوحد هو تنقية الدين الإسلامي من كل البدع والشوائب التي لحقت به عبر مسيرته الطويلة. والرجوع إلى نقاء الإسلام الأول، القائم على القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، ولكن هذه الدعوة لم تجد استجابة سريعة في أيامها الأولى، إلا في حوالي عام ١٧٥٠م[١] عندما اتصل الشيخ محمد بن عبدالوهاب بحاكم الدرعية الإمام محمد بن سعود، الذي أعطاه سنده، ووقف معه، فبدأت الدعوة في الانتشار، وبدأ سلطان الدرعية يتسع حتى شمل معظم أنحاء الجزيرة العربية، فامتد إلى مكة المكرمة، وتعدى الجزيرة إلى خارجها، الأمر الذي أثار مخاوف السلطان العثماني في استامبول، فأمر والي مصر محمد علي باشا بالتوجه إلى نجد. والقضاء على الدولة السعودية الوليدة.. وقد استطاع جيش محمد علي القضاء على الدرعية في ١٨١٩م[٢]- بعد حروب طاحنة، ولكن سرعان ما نمت القوة السعودية من جديد، وحولت عاصمتها من الدرعية إلى الرياض، وانتهت هذه الدولة السعودية الثانية في ظروف معينة، وخرج آخر أئمتها الإمام عبد الرحمن الفيصل من الرياض لاجئاً في الكويت.. ولم تعن نهاية هذه الدولة، موت الدعوة السلفية، فقد بقيت جذوتها حية في النفوس، تنتظر قائداً يقودها من جديد، لتبني دولتها الثالثة.

---

(١) الصحيح أنه في سنة ١٧٤٤م وتقابل ١١٥٧هـ.

(٢) الصحيح أن ذلك كان في سنة ١٨١٨م، وتقابل ١٢٣٣هـ.

في وسط هذه الدعوة السلفية نشأ وترعرع ابن سعود فتشرب مبادئها وتحمس لها، وعمل بشتى السبل على نشرها من جديد، حمل لواءها، وحارب من أجلها، ومن أجل إزالة كل البدع التي نادت الدعوة بإزالتها، يساعده في ذلك عقيدة راسخة، وحماس شديد من أنصارها المتمسكين بمبادئها، فهم أهل السنة والجماعة، وهم لا يتمسكون بغير القرآن والحديث، ومنهج السلف الصالح، وهم ضد كل بدعة، هم أهل توحيد لا يجيزون الخضوع والعباده لغير الله، تقديس الأولياء وزيارة قبورهم، واتخاذ الوسائط في عبادة الخالق، أمور محظورة عندهم، هم لا يدخنون، ولا يلبسون الحرير، ولا يجيزون كل مظاهر الترف، وهم فوق هذا وذاك مستعدون للتضحية بأرواحهم من أجل مبادئ دعوتهم السلفية أصحاب البدع هم أعداؤهم، يدعونهم إلى الطريق القويم بالحسنى، فإن لم يستجيبوا يحاربوهم.

هذه الدعوة وأنصارها المتحمسون لها أضافت عنصراً جديداً عزز من قدرات ابن سعود على قيادة أهل الصحراء، من أجل إعادة حكم آبائه وأجداده من جديد.

فما إن تحرك من الرياض صوب الجنوب حتى بدأ البدو يتجمعون حوله... وبدأت أعدادهم تتزايد، فبلغت آلافاً عدة، كل منهم على جمله ومعه سيفه، وبندقيته، تجمعهم تجمع عفوي، ليس لهم نظام رسمي ينظمهم، ويربط بينهم، رابطهم الوحيد هو قوة عزيمة أميرهم ابن سعود، جاؤوا لأغراض مختلفة، بعضهم يرجو الجهاد والشهادة من أجل دعوته السلفية، وبعضهم الآخر يرجو المغنم، وفئة ثالثة ترجو كلا الأمرين.

٣- معارك وزيجات

بعد سقوط الرياض لم يتحرك ابن رشيد سريعاً، ذلك أنه كان وقت سقوطها على بعد حوالي ثلاثمائة ميلٍ منها، على حدود الكويت، مشغولاً بمحاولته إزاحة حاكمها، والاستيلاء عليها.

تتحرك الجيوش البدوية سريعاً، مثلها مثل أي جيش آخر، ولكن استعدادها للحركة بطيء، فليس لدى قادتها نظام لإرسال الإشارات المرئية، كاستعمال الدخان، أو النار، والذي كانت تستعمله الجيوش الغربية قبل استعمالها لنظام التلغراف الكهربائي (البرق الكهربائي) فأبسط رسائل الجيش البدوي ترسل عن طريق الأشخاص الراكبين، وكذلك الحال مع جميع المعلومات الاستخبارية.. فينعكس كل ذلك على بطء استعداد تلك الجيوش للحركة السريعة.. فمثلاً لم يعلم ابن رشيد باستيلاء ابن سعود على الرياض، وبموت حاكمه عجلان، وبخروج الأمير صوب الجنوب إلا بعد مضي بعض الوقت، ثم إنه لما أراد سحب جيشه من الحدود الكويتية،وتجهيزه حملة تأديبية ضد ابن سعود، كان فصل الصيف قد حلّ، وفي الصيف يصعب تحريك الجيش في الصحراء، بسبب شح المياه، وشدة الحرارة.

ونتيجة لذلك، فقد ظل ابن سعود حاكماً على الرياض مدة سبعة أشهر كاملة، قبل أن يأتيه جواسيسه المنتشرون في الصحراء، بنبأ تقدم جيش ابن

رشيد نحوه.. وعندئذ كان مستعداً للدفاع عن المدينة التي استردها.. وبقي في انتظار جيش خصمه الذي كان يفوق جيشه عدداً، ومراناً على الحرب... عسكر الأمير في واحة كبيرة تقع بالقرب من أسوار قرية تسمى الدلم. وهناك أتته الأنباء بأن ابن رشيد مر بالرياض دون أن يهاجمها وأنه يتجه نحوه فأيقن الأمير أن المواجهة بينه وبين غريمه واقعة لا محالة، والواقع أن تلك المواجهة هي المواجهة الأولى بين الرجلين في حرب متقطعة ستستمر عشرين عاماً [1].

لم تكن هذه المعركة ككل المعارك، كانت أبعد ما تكون عن كونها معركة نموذجية .. فقد قرر ابن سعود أن يبقى منتظراً عدوه في وسط أشجار النخيل. ومن وراء أسوار القرية، بدلاً من الخروج لملاقاته في الصحراء ... نزل جيش ابن رشيد بالقرب من الواحة، وبدأ التقدم عبر الرمال نحوها وكانت الواحة تبدو هادئة، ذلك أن خطة ابن سعود كانت أن يبقى الجند هادئين ساكنين، حتى يصبح العدو في مرمى نيرانهم، فيفاجئوه بإطلاق مكثف للنيران عليه، وكانت هذه خطة جديدة لم يألفها أهل الصحراء، وكانت نتيجتها أن انهال وابل من الرصاص على جيش ابن رشيد المتقدم، فأوقف تقدمه، وأثار الفوضى في صفوفه، فتراجع، ليعاود الهجوم مرة أخرى، ولكنه كان في كل مرة يهجم فيها يواجه بوابل من النيران، واستمر القتال على هذه الوتيرة طيلة اليوم، وجند ابن سعود ثابتون في أماكنهم في الواحة يدافعون عن أنفسهم... والواقع أن الجيشين لم يقتربا من بعضهما، ويلتحما في قتال مباشر.. وبحلول المساء انسحب ابن رشيد إلى معسكره، والحيرة تملؤه من هذا التكتيك الجديد الذي اتبعه عدوه ابن سعود.

---

(١) يبدو أن المؤلف هنا قد خلط بين المواجهة بين البيت السعودي وبيت ابن رشيد وليس بين الرجلين كما أشار، إذ الصحيح أن المواجهة بين الملك عبدالعزيز وعبدالعزيز بن رشيد لم تدم أكثر من أربع سنوات، وذلك بمقتل ابن رشيد عام ١٩٠٦م الموافق ١٣٢٤هـ.

لم يعاود ابن رشيد الهجوم عند مطلع فجر اليوم التالي، كما توقع ابن سعود، بل بدأ بدلاً من ذلك يزحف ناحية الشمال، وبدا وكأنه يريد مهاجمة الرياض، ولكنه لم يفعل، بل تراجع بعد هذه المعركة غير الحاسمة، ليعاود حصاره على الكويت.

ويبدو أن إطلاق النيران بهذه الكثافة جعل ابن رشيد يعتقد أن موارد ابن سعود تفوق موارده. ولم يكن يعلم أن ابن سعود كان قد استنفد كل ذخيرته، وأنه لو عاود الهجوم لاضطر جند ابن سعود استعمال سيوفهم... والذي حدث هو أن البدو الذين انضموا إلى ابن سعود كانوا قد حضروا بجمالهم، وبنادقهم وكل ما يملكون من ذخيرة، وهي التي استعملوها بكثافة في تلك المعركة، ولم يكن بإمكان ابن سعود تعويضهم عنها، فقد كانت إمكاناته شحيحة، لم تمكنه من تعويضهم، أو حتى من استعمال الأسلحة النارية بهذه الكثافة في معاركه التي خاضها في فترة السنوات العشر القادمة، فقد ظل في كل تلك الفترة يحارب بالوسائل التقليدية، بالسيف والرمح وما شاكل ذلك...

والمهم أنه انتصر في معركته مع ابن رشيد بفعل عنصر الخداع، وعامل الحظ، وكان ذلك أول نصر سعودي خلال جيل.

انقضى باقي موسم القتال في مناورات عسكرية، بعضها بغرض خداع العدو، أما ابن رشيد فقد اشتد في حصاره على الكويت للدرجة التي جعلت حاكمها يرسل في طلب النجدة من ابن سعود... ولم يتردد عبدالعزيز في قبول الدعوة، فبدأ يزحف نحو الكويت لإعانة حاكمها الذي آواه، وعائلته وقت الشدة.. وما إن علم ابن رشيد بمقدمه حتى فك الحصار، وتراجع نحو أراضيه، ولكنه غافل جواسيس ابن سعود، وحول مساره نحو الرياض في حركة عسكرية ذكية ولم يكن ابن سعود بأقل ذكاءً منه، فلم يسرع إلى الرياض،

وإنما اتجه إلى أراضي ابن رشيد، يهاجم قراها التي أمدت غريمه بالجند- وما إن سمع جند ابن رشيد بحملات ابن سعود على قراهم تلك حتى تركوا الرياض، وأسرعوا عائدين إلى قراهم ليحموا أهلهم وسوائمهم.. والأمر كذلك حل صيف عام ١٩٠٣م بحره القائظ، فعاد المتحاربون إلى بلادهم يحتمون من الحر، ولكن بعد أن كان البيت السعودي قد سجل سبقاً،وبعد أن كان جنده قد نالوا نصيبهم من الغنائم.

في هذه الأثناء بدأ ابن سعود يفكر في الزواج، فقد تزوج مرتين وهو في الكويت: أولاهما عندما كان في الخامسة عشرة من عمره، ولكن زوجته تلك والتي كانت تصغره سناً توفيت بعد وقت قصير، ويقال إنه ظل يكن لها حباً شديداً، وفياً لذكراها طيلة حياته.. أما زوجته الثانية فقد ولدت له ابنين، أصغرهما هو الأمير سعود، والذي خلف أباه ملكاً فيما بعد، وكان مولده في حوالي وقت استرداد والده للرياض.

وإن تعددت زيجات ابن سعود بعد ذلك، فقد كانت كلها وفقاً لتعاليم الشريعة الإسلامية، وقد ازدان مقره بعدد من الأبناء والبنات، عاش بعضهم، ومات البعض الآخر، وكانت حياته العائلية حياة سعيدة، فقد عرف بحبه لأطفاله، وباستمتاعه بصحبتهم، والبقاء معهم، كما امتاز بسمعة طيبة كأب، وزوج.

والملوك قد لا يتزوجون عن حب، فهناك الزيجات السياسية، وغير السياسية، والسياسية هي: إما بغرض سياسي مثل الرغبة في توحيد الأمة، أو لتحقيق أغراض قومية أخرى- ولا غرابة إذا كان ابن سعود قد أصهر إلى عدد من قبائل الجزيرة العربية المهمة، من أجل ربطها به برباط عائلي، ونيل ولائها له كحاكم يريد توحيد أراضية الشاسعة، ورعاياه الكثر... وعلى الرغم

من ذلك فقد ارتبط ابن سعود ببعض زوجاته برباط عاطفي قوي، مثل ارتباطه بزوجته الثانية- أم الأمير سعود ، والتي بقيت معه طيلة حياته... كما أنه عرف بحبه الشديد لأخته نوره، التي كان لها - مع أم الأمير سعود- فضل إدار ة شؤونه المنزلية..

لم تصرف ابن سعود مشاغله العائلية عن مواصلة نشاطه الحربي، فاستمرت نجاحاته الحربية متوالية... فقد تمكن من بسط سيطرته على القرى والقبائل البدوية الواقعة في الصحراء إلى الشمال الغربي من الرياض، وقد مكنه تراجع ابن رشيد إلى عاصمته حائل، من إحراز تلك النجاحات... وفي عام ١٩٠٤م هاجمت قواته مدينة عنيزة، فاستولى عليها بعد يوم من القتال الدامي.

وهناك ترجمة إنجليزية لخطاب من ابن سعود إلى شيخ الكويت يخبره فيه بسقوط المدينة في يده، والترجمة موجودة الآن في أرشيف وزارة الخارجية البريطانية، ولغتها التي تشبه لغة التوراة عائدة إلى الرجل الإنجليزي الذي قام بترجمتها في الكويت.

يقول ابن سعود لشيخ الكويت في رسالته تلك ما ترجمته بالعربية:- «حفظك الله، لقد أرسلنا إلى سموكم خطاباً آخر قبل هذا، بيد خادمكم ماضي، أوضحنا فيه نيتنا القيام بحملة، وقد قمنا بها، وبعون الله ثم بعونكم وصلنا العوشزية[1]، وأنخنا جمالنا هناك عند الظهيرة، ونزلنا فيها، ونزل معنا آل سليم - الذين كانوا معنا- بقية ذلك اليوم، وقد أرسل بعض أهل عنيزة الذين كانوا في معيتنا إلى باقي أهل عنيزة سراً يخبرونهم بمقدمنا... وعند حلول الساعة الرابعة من الليل تحركنا نحو عنيزة، وبعد أن صلينا الفجر،

(١) اوقد تكتب أيضًا: العوسجية.

أرسلنا عليهم عبد الله بن جلوي، ومعه مئة رجل من أهل الرياض لمساعدته، وسرنا نحن ضد ماجد[1]، وعندما رأى خيالتنا، رفع الله عونه عن رجاله، وأيدنا عليه، فكسرناهم، وشتتناهم، وقتلنا منهم ثلاثمائة وسبعين رجلاً، وقد أكرمنا الله بإعادة أقربائنا -من آل سعود- لنا الذين كانوا في قبضتهم، وبقدرة الله العلي القدير، لم يقتل منا سوى بدويين اثنين، ثم رجعنا إلى قرى أصدقائنا، الذين كانوا قد استولوا على القصر، وقبضوا على عائلة يحيى ومن كان معهم، وقتلوهم جميعاً ، كما أنهم قاموا بإخلاء بيوت عائلة البسام... ووالله لم يهرب مع ماجد إلا حوالي خمسة عشر جملاً، وسبعة أفراس، وقد غنمنا - بحول الله وقوته- ما تبقى من أمتعة جيشهم، وخيلهم، وسلاحهم، وخيامهم ونيتنا- بمشيئة الله- هي التوجه إلى بريدة .. وإلى هنا .. لكم التحية»اهـ.

بعد سقوط عنيزة بقليل، استسلمت بريدة له، خوفاً من أن يحل بها ما حل بعنيزة...

وبسقوط هذه المدن تم توحيد مملكة آل سعود القديمة مرة ثانية- ماعدا المعقل التركي في الأحساء... ولكنها كانت مملكة تفتقر إلى المواصلات، وإلى نظام إداري... كما أن سلطة ابن سعود عليها كانت ضئيلة.. وقد اعتمدت سلطته تلك على ولاء البدو المتغير، المتبدل دائماً، والقائم على توقع النصر في المعارك، وما يجره ذلك النصر عليهم من غنائم... وسيظل البدو معه مادام هو الجانب المنتصر ومن ثم لم يكن باستطاعته التوقف عن القتال، وسيبقى البدو إلى جانبه.وكان عليه - شأن القادة الناجحين- البحث دائماً عن

(١) ماجد هذا هو ماجد بن حمود بن رشيد.

انتصارات جديدة، تعزز من سمعته، وهيبته، وترضي الروح القتالية التي عمل دائماً على بثها، وإثارتها في جيشه، فالسلام الباكر ليس في مصلحته، بل قد يشكل كارثة عليه- وكان يدرك أنه إن لم يعط أنصاره شيئاً يحاربون من أجله فلربما انقلبوا يحاربُ بعضهم بعضاً، أو ربما انقلبوا ضده[1].

كان ابن رشيد هو ذات الحاكم، كابن سعود تماماً ، وكان جيشه شبيهاً بجيش ابن سعود، وكان مدركاً أن أراضيه في خطر، ما دامت الضرورة البدوية تحتم على غريمه الأمير ابن سعود دوام التقدم ودوام القتال، ولم يفعل ابن رشيد شيئاً سوى قبول هزيمته بروح رياضية فلسفية، وتلك هي سيماء البدو الناتجة عن تعرضهم المستمر للمصائب والكوارث، فهم معرضون دائماً للهزائم في حروبهم المتواصلة، ومعرضون للجفاف، وللجوع، ولقسوة الحياة البدوية، وللأسى ، والألم، ولكنهم يتحملون كل ذلك في رضوخ، وإذعان، وإيمان، اعتقاداً منهم أن الله سبحانه وتعالى سيجعل دائماً من بعد عسرهم يسراً... والحال كذلك- وابن رشيد قابع لا يفعل شيئاً ، فقد ظل ابن سعود يسترد يوماً بعد يوم أجزاءً من أملاك آبائه الأوائل.. ويقترب في أثناء ذلك من أملاك ابن رشيد، الذي بدأ يشعر بالخطر القادم نحوه خاصة بعد سقوط عنيزة، وبريدة في يد ابن سعود، الأمر الذي دعاه في النهاية إلى طلب العون من الدولة العثمانية عوناً قد يمكنه من إيقاف الخطر السعودي الذي بدأ يهدد أراضيه، استجابت الحكومة العثمانية لطلبه، فأرسلت إليه في ربيع ١٩٠٤م ثماني كتائب من جيشها لمساندته، وشد أزره.. وبوصول هذه القوات العثمانية،

(١) المطلع على تاريخ الملك عبدالعزيز منذ بداية دخول الرياض يبدو له أنه لم يكن يلجأ للحرب لذاتها وإنما كان هدفه توحيد أجزاء مملكته، وكان يحاول دائمًا تفادي الحرب بكل الطرق المعروفة عنه، وما حدث من حروب خاضها لم يكن هو الداعي لها بل كان أعداؤه هم المبادرون إليها.

تحولت الحرب التي كانت حتى تلك اللحظات صراعاً عائلياً، تحولت إلى صراع خارجي.

وفدت مع الجيش التركي الذي قدم إلى الصحراء، ثلاثة أمور لم يعرفها أهل الصحراء من قبل، وهي: الانضباط العسكري، والمدفعية، والكوليرا- وكلها أمور لم يعرفها، ولم يواجهها ابن سعود قبل هذا، فهو لم يعرف جيشاً غير الجيش البدوي الذي لا يعرف الانضباط، ولا يعرف المدفعية، ورغم قناعته بمهارة، وقدرات الجيش التركي القتالية، فقد بقي ثابتاً، لم يثبط من همته مقدم ذلك الجيش الزاحف نحو الصحراء... بل اتجه إلى ترتيب قواته البدوية، وخرج بهم لمواجهة هذا التحدي الجديد.. ولكنه كان في الواقع يحس بالخطر، وبأن قيادته تواجه امتحاناً عسيراً، ولذا وقبل أن يخرج للمعركة كتب - أو ربما أملى - رسالة وجهها مع «نجَّاب»[1] إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي، طالباً منه العون والمساعدة.

(١) النجاب هو الرجل المعني بحمل الرسائل المستعجلة في مثل هذه الظروف.

٤- المقيم البريطاني

المقيم السياسي البريطاني في الخليج هو بيرسي كوكس والرسالة الموجهة إليه من ابن سعود التي وصلته في مايو ١٩٠٤م هي أول اتصال رسمي بين الرياض وبين قوة أجنبية «هذا إذا استثنينا صلة الرياض بالأتراك» - فمنذ زيارة العقيد لويس بلي قبل تسعة وثلاثين عاماً، لم يحدث أن اتصل أي حاكم في الرياض بقوى أجنبية.. وقد أثار طلب ابن سعود المساعدة ضد الجيش التركي المتقدم نحو البلاد النجدية، مشكلات صعبة لم يكن بإمكان كوكس حلها.. وأثار أيضاً حركة في أوساط الحكومة البريطانية لم يكن في مقدور ابن سعود تخيلها.

مقر المقيم السياسي البريطاني كان في بوشهر، على الجانب الفارسي من الخليج العربي- وكان له مساعدان- يطلق على كل منهما لقب الوكيل السياسي أحدهما مقيم في بلاط شيخ البحرين، والثاني- ويدعى نوكس في بلاط شيخ الكويت. هؤلاء الرجال الثلاثة هم الذين أوكل إليهم رعاية المصالح البريطانية في كل منطقة الخليج- وقد أصبح كل من كوكس، وفوكس الصلة الوحيدة بين ابن سعود، والعالم الغربي (بريطانيا) لفترة السنوات الخمس القادمة.

عين كوكس في وظيفته كمقيم سياسي حديثاً، ولكنه كان قد قضى قبل ذلك أربع سنوات كوكيل في مسقط- الواقعة في الركن الجنوبي الغربي من الجزيرة

العربية، وهناك قام ببعض الجهد في محاربة استجلاب الرقيق من أفريقيا.. وقام بتجويد لغته العربية أثناء إقامته في مسقط- كما أنه اكتسب تعاطفاً، ومودة نحو العرب، والسيد كوكس إنجليزي، نحيف، طويل القامة، وأهم ما يميزه أنفه المعقوف، والذي اكتسب عدم استقامته إثر حادث تعرض له كوكس أثناء مباراة في كرة القدم. كان كوكس رجلاً داهية، رفيقاً، متماسكاً، عنيداً، قليل الكلام، وصبوراً إلى حد بعيد، وفوق هذا وذاك يتحلى بمحبة حقيقية للعرب الذين عمل بينهم، وهم يبادلونه شعوراً بالمودة، والاحترام.

ومن أولئك الذين يحترمون ويحبون كوكس شيخ الكويت، على أن الرجلين على طرفي نقيض من حيث عاداتهما وطباعهما، فكوكس معتدل في كل شيء، كلامه قليل، وقانع هانئ مع زوجة مخلصة له، وخادم مخلص لملكه في هذه الديار البعيدة، في حين أن الشيخ مبارك، عربي، داهية، جاء إلى العرش على حساب أخيه (فقد قتله وقتل كل من عارضوه)، ولكن على الرغم من هذا التناقض بين الرجلين - كوكس والشيخ مبارك، فالرجلان صديقان، فالشيخ مبارك في نظر البريطانيين رجل ذو مكر ودهاء، ولكنه مكر يحببه إلى نفوس من عرفوه، ككوكس مثلاً .. والذي كان الشيخ يصغي دائماً إلى نصائحه، ويعمل بموجبها، فإذا ما انتقد كوكس ممارسات الشيخ مبارك في اتجاره بالسلاح، أو بعض ممارساته الخاصة، فإن الشيخ كان يأخذ ذلك مأخذ الجد، ويعمل جاهداً للإقلاع عنها، وكان كوكس معجباً بالشيخ مبارك، كحاكم عربي، فطن، ذكي، وكان الإعجاب متبادلاً، وإن كنا لا ندري أي صفات كوكس حببته إلى نفس الشيخ مبارك- وجعلتهما يحترمان بعضهما بعضاً.. ولم تكن مثل هذه العلاقة المبنية على الاحترام المتبادل بالأمر الغريب في كوكس، وأمثاله من بناة الإمبراطورية... والذين عملوا في أماكن بعيدة. وعاشوا فيها بصفتهم

إداريين أفرادًا .. كما في الخليج مثلاً .. حيث أبدو تعاطفاً واضحاً مع أهل تلك الجهات... وكان هذا هو غير حال الإداريين البريطانيين الذين عاشوا بأعداد كبيرة في مستعمرات كالهند، وكبعض المستعمرات الأفريقية، فقد اتسموا في تلك المستعمرات بسلوك وشعور متعال لا يطاق، وعاشوا عيشة متعالية على السكان هناك.

ظل أولئك الإداريون البريطانيون يرقبون من مراكزهم في الخليج، الأحداث الجارية في الجزيرة العربية لفترة أجيال، ويرسلون التقارير عنها، ولسلف كوكس بعض التقارير الجافة التي كان يرسلها إلى لندن عن تلك الأحداث.. فقد كتب مثلاً في عام ١٩٠٢م ما نصه: «في حوالي منتصف يناير، وقعت حادثة ذات أهمية كبرى هي استيلاء عبد العزيز على الرياض- العاصمة الوهابية القديمة، وفي الوقت الحاضر لم يقم أمير نجد (ابن رشيد) بأي إجراء فعال ضد عبد العزيز، الذي قوى من سلطته في الرياض، وحصل على سند الكثيرين».

في العام القادم ١٩٠٣م تحدث الضابط نفسه عن «تقارير مستمرة ومتضاربة» آتية من الصحراء ، ثم أضاف: «الاعتقاد السائد هو أنه كان ينبغي أن تقع معركة حاسمة قبل هذا الوقت، ولكن لم تصل حتى الآن أنباء موثوق بها عن أي مواجهة». والواقع هو أن ابن سعود كان قد سجل انتصاره الأول على ابن رشيد في معركة الدلم، والتي استعمل فيها السلاح الناري، ولكن يبدو أن أنباء تلك المعركة لم تكن قد وصلت إلى الساحل بعد ومن ثم لم يكن الضابط كاتب التقرير أعلاه على علم بها.

لم تكن هذه التقارير وتقارير كوكس فيما بعد، ترسل إلى لندن رأساً، وإنما كانت ترسل إلى حكومة الهند، بحسبان أن مناطق أواسط الجزيرة

العربية، والخليج العربي، كانت ضمن المناطق التابعة لنائب الملك في الهند، اللورد كيرزون ذلك الإداري البريطاني اللامع... فكانت التقارير البريطانية الخاصة بنشاط ابن سعود ترسل أولاً إلى بومبي وكلكتا، ومن هناك إلى مكتب الهند في لندن، وبالمقابل كانت الردود على هذه التقارير، بل وكل التعليمات الخاصة بالسياسة البريطانية في شرقي الجزيرة العربية والتي كانت ضمن اختصاصات وزير الدولة لشؤون الهند ترسل من لندن إلى الموظفين البريطانيين في منطقة الخليج عبر هذا الطريق غير المباشر أي عن طريق بومبي وكلكتا.

أما الحجاز الخاضع لحكم شريف مكة، الذي كانت حدوده تمتد من ساحل البحر الأحمر إلى مشارف أراضي ابن سعود فقد كان بالنسبة للبريطانيين جزءًا من الشرق الأوسط، الذي يشمل أيضاً مصر الواقعة تحت الاحتلال البريطاني، والسودان الذي قضى (كتشنر) على ثورته المهدية في موقعة أم درمان الشهيرة، فأصبح بدوره تحت الاحتلال البريطاني... وكانت منطقة الشرق الأوسط تابعة لوزارة الخارجية البريطانية، ومن ثم كانت كل التقارير الواردة من الحجاز مثلاً ترسل عن طريق القاهرة إلى وزارة الخارجية في لندن الجهة المسؤولة عن تحديد وتنفيذ السياسة البريطانية في منطقة غربي الجزيرة العربية.

هذا الفصل في المسؤوليات والسياسات الخاصة بجزئي الجزيرة العربية-الشرقي والغربي- لم يكن ذا أهمية في فترة السنوات العشر الأولى من هذا القرن العشرين... فقد كانت الصحراء الواسعة القاحلة تفصل تماماً بين جزئي الجزيرة العربية، كما كان الإداريان البريطانيان المحليان المسؤولان عن كلا الجزئين لا يتقابلان إلا نادراً وربما عرضاً أثناء عطلاتهم الصيفية في

لندن.. كما كانت التقارير الواردة من أولئك الإداريين تصل إلى جهتين مختلفتين- في مبنى وايت هول هما وزارة الخارجية، ومكتب الهند... يحويهما مبنى واحد، ولكنهما يختلفان تماماً في آرائهما، وسياساتهما الخاصة بجزئي الجزيرة العربية، يتبادلان عبارات المجاملات الشكلية في تعليقاتهما على التقارير ذات الصفة المشتركة بينهما... ولكنهما لا يتفقان في رأي ولاسياسة.. ولا تدري أي منهما ما تفعله الأخرى، وكأنهما جهازان إداريان منفصلان في بلدين مختلفين، لا رابط ولا تنسيق بينهما... ومن ثم التضارب والتعارض في سياستيهما.. وكانت ازدواجية، المصالح، والسياسات هذه تشوش على الحكام العرب، وتفسد علاقاتهم ببريطانيا، خاصة وقت اندلاع الحرب العالمية الأولى وأثناءها ولكنها ازدواجية استمرت لعدة أجيال ، ولم تتغير.

لم يكن ابن سعود على علم بتعقيدات السياسة البريطانية هذه ولم يكن يعرف من البريطانيين إلا الملك ادوارد السابع، واللورد كيرزون، إضافة إلى كوكس، ونوكس... وحتى عندما كان في الكويت،لم تهيئ له الظروف لقاء أو معرفة إداري بريطاني معرفة مباشرة، فلم يكن له ولا كان للبريطانيين حاجة ظاهرة لمثل ذلك اللقاء... وربما كانت معرفة ابن سعود بالبريطانيين عن طريق ما سمعه عنهم من الشيخ مبارك الذي كان على صلة وثيقة بهم، بل كانت له اتفاقية معهم عام ١٨٩٩م[١]... وربما سمع منه في بعض الأحيان أن لبريطانيا قوة هائلة، لا يمكن لأي حاكم في المنطقة تجاهلها، وأنه يمكن للحاكم الذكي الاستفادة من تلك القوة البريطانية.

كانت الكويت دائما محط أنظار الأتراك العثمانيين، وكانوا يريدونها دائماً

(١) هذه الاتفاقية كانت إثر الخلاف الذي وقع بين الشيخ مبارك الصباح وأخويه، وهي منشورة وكان تاريخ توقيعها هو ١٠ رمضان ١٣١٦هـ، الموافق ٢٣ يونيو ١٨٩٩م.

تحت سيطرتهم المباشرة، بسبب رغبتهم في احتكار جباية الضرائب على البضائع الواردة عبر الكويت إلى بقية الجزيرة العربية، ولا غرابة إذاً إذا ما شجع الأتراك حليفهم ابن رشيد في محاولاته حصار الكويت، والسيطرة عليها، ولكن كل تلك المحاولات كانت تبوء بالفشل... ففي أوائل عام ١٩٠٤م أوصل عميل سري إلى السفير البريطاني في استامبول صورة من رسالة موجهة من ابن رشيد إلى السلطان العثماني، يشكو فيها من شيخ الكويت دائم الإغارة على أراضيه، وأنه أداة في أيدي البريطانيين، ويطلب فيها الإذن من السلطان لمهاجمته... وكان شيخ الكويت كلما شعر بأن ابن رشيد على وشك الهجوم عليه، يرسل مذكرةً عاجلة إلى المقيم السياسي البريطاني طالباً العون، وسرعان ما تستجيب بريطانيا لطلبه، فترسل إحدى سفنها الصغيرة المسلحة إلى ميناء الكويت، فيضطر الأتراك إلى أمر حليفهم ابن رشيد بالتراجع خوفاً من مغبة التعقيدات، والمشكلات الدولية...

وفي عام ١٩٠٤م نفسه قام اللورد كيرزون بجولة رسمية في الخليج، وفي معيته عدد من السفن الحربية البريطانية، وقد زار الكويت، وأهدى شيخها سيفاً.. ثم قام بتعيين نوكس مقيماً سياسياً في الكويت، واجبه حماية المصالح البريطانية في المنطقة من توغل الدول الأخرى، ومن تدخلها في مناطق النفوذ البريطاني... وتلك كانت هي سياسية بريطانيا في منطقة الخليج، وهي سياسة برهنت على نجاحها... وكان طبيعياً أن يحتج الأتراك، وحليفهم ابن رشيد على تعيين نوكس، وأن يهددوا، ويتوعدوا- ولكن تهديداتهم واحتجاجاتهم انتهت إلى لاشيء.

ربما جالت بخاطر ابن سعود فكرة الحصول على حماية بريطانية كالتي كانت تحظى بها الكويت، عندما أرسل رسالته تلك إلى نوكس، طالباً عون

بريطانيا، ضد جيش الأتراك القادم إلى معاونة ابن رشيد... وكان ابن سعود يظن أن احتمال حصوله على العون البريطاني أمر محتمل، فإن أعان الأتراك ابن رشيد، فهناك احتمال أن يعينه البريطانيون، خاصةً وأنه يبدو من ظواهر الأمور أن البريطانيين لا يميلون إلى الأتراك... والواقع لو سارت الأمور حسب هوى نوكس، لتحقق حلم ابن سعود في الحصول على العون البريطاني، ذلك أن كوكس كان على علم بأن القبائل في الصحراء الوسطى تدين بالولاء لابن سعود، وأن محاولات الأتراك إعادة حكم ابن رشيد من جديد ستؤدي إلى نزاعات لا نهاية لها... هذا كان رأي نوكس، ولكن منطق الظروف والأحوال التي كانت سائدة كان يقول: إنه لا مجال للحصول على ذلك العون، ويقول: إن مخاطرة دولة كبرى كبريطانيا بالقيام بعمل عدائي ضد دولة أخرى - هي تركيا- من أجل مساعدة شيخ عربي (هو ابن سعود) أمر غير وارد..

وعليه لم يكن غريباً أن تجد رسالة ابن سعود في لندن الرفض من وزير الخارجية اللورد لاندز داون الذي علل رفضه بأن المصالح البريطانية محصورة في الساحل الخليجي، ويجب أن لا تمتد إلى داخل الجزيرة العربية.. ولكن وزير الخارجية البريطاني، لم يذهب في رده ذاك إلى حد إخطار السفير البريطاني في استامبول، بتذكير الأتراك بالاتفاق المعقود بينهم وبين بريطانيا قبل سنوات، والذي ينص على أن بريطانيا ستحد من تحركات شيخ الكويت، إذا ما فعل الأتراك نفس الشيء مع حليفهم ابن رشيد.

وعلى كل فقد كان من نتائج طلب ابن سعود للعون البريطاني، أن رأياً بريطانياً آخر حول شؤون الجزيرة العربية قد برز على الساحة، وهو الرأي الذي عبر عنه السفير البريطاني في استامبول في رسالة وجهها إلى حكومته في لندن، قال فيها: إنه ليس من المعقول أن يطلب من الأتراك العدول عن

مساعدة ابن رشيد لابن سعود (وسماه الوهابي) هو المعتدي، ومضى السفير البريطاني مضيفاً، إن الأمر متروك لحكومة الهند لتمنع شيخ الكويت من مساعدة ابن سعود، وحذر السفير من أنه لو سمح للعائلة السعودية بإقامة حكمها مرة ثانية، فإن نتائج غير معروفة العواقب ستحدث... وواضح من هذه الرسالة أن السفير البريطاني في استامبول كان يقف إلى جانب ابن رشيد، في حين كان كوكس مسانداً لابن سعود.

لم يكن أمام وزير الخارجية البريطاني اللورد لاندز داون، وهو أمام هذه الآراء المتعارضة ، إلا الاحتماء بإصدار تصريح قال فيه: إن على الكل المحافظة على الحالة الراهنة.. وقد علق اللورد كيرزون تعليقاً ساخراً على تصريح لاندز داون هذا، حينما قال: «إنك إذا سمعت وزير خارجية في أي مكان يقول: إن كل ما يريده هو الإبقاء على الحالة الراهنة، والدفاع عنها، فعليك أن تخمن باطمئنان أنه في كل تسع حالات من عشرة، ليس لذلك الوزير سياسة على الإطلاق». أهـ.

استغرق مرور هذه البرقيات، والخطابات اللاذعة، التي تعبر عن هذه الآراء البريطانية المتعارضة، بين لندن، واستامبول، وكلكتا، وبوشهر، وقتاً طويلاً.. كانت الأحداث خلاله تتلاحق في الصحراء، إذ لم يكن باستطاعة تلك الأحداث الانتظار، ففي الوقت الذي كانت فيه الرسائل تكتب، وتنمق، ثم تعاد كتابتها من جديد، كان ابن سعود، قد واجه الأتراك -دون مساعدة من أحد- في معركة حاسمة وخسر.

٥- موت عدو

لم تكن الهزيمة حاسمة أو نهائية، شأنها في ذلك شأن كل هزائم وانتصارات حروب الصحراء، فهناك، في حالة النصر يتحول المقاتلون إلى الغنائم بكليتهم.. وفي حالة الهزيمة يفرون.. استمرت المعركة[١] طيلة يوم ١٥ يناير ١٩٠٤م[٢]، وحر الصيف على أشده.. ويقال: إن حوالي ألف رجل قتلوا في تلك المعركة، ولا بد أن ذلك كان أمراً شنيعاً في ذلك الوقت... ولكن إذا ما نظرنا إلى تلك المعركة بعين الماضي، فقد تبدو لنا أمراً غريباً.

فقد خاض الطرفان المعركة في أرض صحراوية مكشوفة، دون غطاء أو ساتر في منطقة سهول ملحية، وتلال رملية، حيث عسكر الجيشان المتحاربان في قبالة بعضهما، ينظر كل منهما إلى الآخر. كان ابن سعود هو البادئ بالهجوم.. في حين شكل الأتراك مربعاً دفاعياً لم يكن من اليسير على الخيالة البدو، والقناصين، التأثير فيه.. أضف إلى ذلك أن إحدى فرق جيش ابن سعود المكونة من إحدى قبائل منطقة عنيزة، تحاشت الهجوم على الأتراك، وهجمت على بدو ابن رشيد، حيث نجحت في تشتيتهم، واجتياح معسكرهم، وفي هذه الأثناء بدأت القوات التركية تطلق مدافعها على قوات ابن سعود

---

(١) أي معركة البكيرية، وكان ذلك بعد ٢٩ ربيع الآخر ١٣٢٢هـ.

(٢) أي ٢٦ شوال ١٣٢١هـ، وهذا التاريخ فيما يبدو غير صحيح إذا علمنا أن بداية موقعة البكيرية كانت في ٢٩ ربيع الآخر ١٣٢٢هـ وتقابل ١٤ يوليو ١٩٢٢م.

الأساسية، والتي بدأت تفقد توازنها، فدوي المدافع أمر لم يألفه البدو من قبل، والمعركة على أشدها جرح ابن سعود في يده، فانسحب إلى خيمته، وتقول بعض الروايات إنه أصيب أيضاً في ساقه، وأنه أغمي عليه، وفي أثناء غيابه ذاك، اضطرب رجاله، وانخفضت روحهم المعنوية، وعند عودته إلى أرض المعركة ثانية لم يستطع السيطرة عليهم، ولم يكن على علم بانتصار أهل منطقة عنيزة، وظن أنه فقد المعركة، فانسحب من أرضها، تاركاً الأتراك ليسلبوا، وينهبوا، ولينالوا نصيبهم من الغنائم.

وعندما عاد رجال منطقة عنيزة إلى المعسكر محملين بالغنائم، وجدوه في أيدي الأتراك، وقد هال الأتراك تقدم هذه الجماعة البدوية نحوهم، فتقهقروا، ولكن رجال منطقة عنيزة كانوا منهكين، وقد فت في عضدهم عدم وجود قائدهم ابن سعود، فلاذوا بالفرار، ومرة ثانية خلا الجو للأتراك، ولو كانوا سريعي الحركة لتمكنوا من متابعة انتصارهم، وألحقوا بقوات الأمير المنسحبة هزيمة نهائية، ولكنهم كانوا بطيئي الحركة، ومتعبين من جراء قيظ الصحراء، فآثروا البقاء في معسكرهم، قانعين بنصرهم هذا، وتاركين ابن سعود، حياً طليقاً، ليحارب مرة ثانية.

كانت النكسة خطيرة، فقد فقدَ ابن سعود عدداً كبيراً من رجاله، ودوابه، وعتاده، كما أن ثقة البدو في مهارته، وحسن طالعه، اهتزت إلى حدٍّ كبير، فحماس البدو المتغير، المتبدل دونما سبب ظاهر كان دوماً أحد نقاط ضعفه، وربما ضعف غيره من الحكام العرب، وبدا وكأنما نجمه قد أخذ في الأفول خلال الأسابيع التي تلت المعركة، ولكنه على الرغم من جراحه لم يستسلم للهزيمة، فقد قام بعدة رحلات سريعة إلى شيوخ القبائل بغرض شحذ سندهم، وإقناعهم بإرسال الرجال لمساندته من جديد، ولم يكن لابن سعود

آنذاك سلاح يستطيع به الحفاظ على أملاكه المهتزة إلا سحر شخصيته، وجاذبيته الخاصة.

كانت الصحراء حليفه القوي الذي لا يقهر، ولم يكن يدرك هذه الحقيقة أول الأمر، فالأتراك ليسوا أهل صحراء، وقد ظنوا كما ظن البريطانيون عندما أرسلوا جيشهم إلى السودان، أنهم إنما يفعلون ذلك كواجب حضاري من أجل نشر الحضارة والمدنية بين السكان، ولكن إرسال مثل ذلك الجيش التركي- ذي المهمة الحضارية- أثناء فصل الصيف أمر اتسم بكثير من عدم الحكمة.

لم يكن ابن سعود في حاجة لمحاربة هذا الجيش التركي القابع في الصحراء، ولو أرسل بعض جنده للسيطرة على الآبار أمام هذا الجيش لتحقق له النصر، فقد كان وضع الأتراك صعباً للغاية، فسياسياً ليس لهم الحق في التواجد في تلك الجهات الصحراوية، وحربياً كان جندهم يعانون من الحر والإرهاق بعد سيرهم مئات الأميال على الأقدام، من الأناضول إلى صحارى الجزيرة العربية، الأعداء يحيطون بهم من كل جانب، جو الصحراء القائظ، ورمالها الممتدة إلى ما لا نهاية، ومعاناتهم النفسية الناتجة عن شعورهم أنه لا رجعة من هذه الرحلة الشاقة... ولكنهم كجند نظاميين منضبطين ظلوا يتحملون كل هذه المعاناة في انتظار مصيرهم المحتوم.

لم يبد البريطانيون أي رد فعل لنجاح الأتراك، ربما لعلمهم أن ذلك النجاح لن يستمر طويلاً، ولانشغالهم ببعض الأمور الإدارية، مثل خلاف وزارة الخارجية مع حكومة الهند حول تعيين نوكس وكيلاً سياسياً في الكويت، فقد كان اللورد كيرزون هو الذي اقترح - بمشورة ونصح كوكس- إرسال وكيل

بريطاني إلى هناك.. كان اللورد لاندز داون- وزير الخارجية- قد وافق على هذا الاقتراح، ولكنه عاد وغير رأيه، وأمر حكومة الهند بسحب نوكس من منصبه - ربما بتأثير من السفير البريطاني في استامبول الذي أقنعه بذلك- وسواء أكان هذا هو السبب أم غيره، فقد بدا اللورد كيرزون جد متضايق من تغيير وزير الخارجية لرأيه خاصة عندما شاور كوكس حول الأمر، وأخبره كوكس بأن سحب نوكس من منصبه، سيثير غضب شيخ الكويت، الذي ربما يحول ولاءه إلى الأتراك.

أرسلت حكومة الهند رسالة مهذبة إلى وزارة الخارجية في لندن ممهورة بإمضاء لورد كيرزون، واللورد كتشنر (القائد العام)، وبعض موظفيها- حملتها رأيها، واقترحت فيها حلاً قد يكون هو المخرج من مأزق سحب نوكس من منصبه في الكويت، والاقتراح هو: أن يخطر نوكس شيخ الكويت أنه إلى حين يتم بناء منزل يناسب له، فإنه لن يتمكن من البقاء في جو الكويت الحار، وإنه من ثم قد تقدم بطلب لحكومته في لندن للسماح له بمغادرة البلاد مؤقتاً لأسباب صحية... وضع هذا الاقتراح أمام وزير الخارجية ليبدي رأيه حوله، قبل أن يخطر نوكس به.. وبعد شهرين جاء رد وزير الخارجية متضمناً عدم معارضته لاقتراح حكومة الهند.... كان هذا الرد مقبولاً للورد كيرزون، إذ إنه أبقى نوكس في منصبه.

وفي الوقت نفسه كان هناك نقاش يدور بين الإداريين البريطانيين في الهند، وبين الحكومة البريطانية في لندن، حول مسألة الاتجار في الأسلحة، فقد كانت الحكومة تعارض بيع البنادق المستعملة للقبائل العربية- وتلك كانت تجارة رائجة- وكانت الحكومة تحاول ولعدة سنوات السيطرة على هذه التجارة، في منطقة الخليج العربي، وكانت تعلم أن الكويت مركز مهم، من

مراكز هذه التجارة، وأن شيخها أضحى مستورداً رئيسياً لهذه الأسلحة، وأنه يبيعها بأثمان عالية لابن سعود، ولرجال قبائله- وكان الأتراك على علم بذلك أيضاً. وتنفيذاً لسياسة الحكومة، فقد أمرت وزارة الخارجية اللورد كيرزون بالعمل على وقف هذه التجارة، والتي قال السفير البريطاني في استامبول إن استمرارها يقلق الحكومة التركية إلى حدٍّ كبير.

ولكن كيرزون، وكوكس، كانا مترددين في إيقافها، ذلك لأن كوكس كان يرى أن توقف شيخ الكويت عن بيع الأسلحة لابن سعود سيفقد الشيخ نفوذه، وشعبيته.. في حين أن كيرزون كان يعتقد أنه لو قطعت إمدادات الأسلحة عن ابن سعود، فإن الجزيرة العربية ستؤول قطعاً إلى الأتراك... وإن ميزان القوى سيختل في داخل الجزيرة.

كان كيرزون يرى أيضاً أنه ما من قوة تستطيع وقف هذه التجارة، فلا الزوارق الحربية البريطانية تستطيع تفتيش كل مركب عربي في مياه الخليج، ولا نوكس يستطيع السيطرة بمفرده على سوق السلاح الرائج في الكويت... ولأن كيرزون كان لا يريد إثارة غضب وزير الخارجية اللورد لاندز داون، فقد وافق على الأوامر الصادرة بوقف تلك التجارة، وعلى مراقبة أعالي البحار بتسيير دوريات حربية فيها، ولكن دون التشدد في ذلك، إضافة إلى التجاوز عن بعض ما كان يجري في سوق الكويت... وعليه فقد استمرت تجارة السلاح مزدهرة، إلى الحد الذي قيل فيه: إن بدوياً أوقف نوكس في سوق الكويت سائلاً إياه أي أنواع البنادق يبيع؟ ظناً منه أن نوكس ،مثله مثل أي أجنبي آخر بائع سلاح.

وهكذا ظلت الكويت سوقاً يستورد منه ابن سعود الأسلحة،خاصة تلك

التي كان قد فقدها في معركته مع الأتراك... ومن ثم وقبل انتهاء صيف عام ١٩٠٤م كان ابن سعود قد استرد قوته، وسلاحه، وجمع الرجال، وأخذ يستعد لملاقاة الأتراك مرة ثانية.. وليست لدينا معلومات معاصرة عن الأحداث التي شهدها خريف ذلك العام، والمعلومات القليلة المتوافرة متضاربة ومختلفة، والذي نعرفه جيداً، هو أن القوات التركية الموجودة في أواسط نجد، كانت قد أبيدت تماماً بنهاية سبتمبر من ذلك العام، ولكننا لا ندري كيف أبيدت؟- هل كان ذاك على يد ابن سعود، أم كان ذلك بفضل عوامل أخرى، مثل عامل الخيانة، والتمرد في أوساط الجيش التركي، أم بسبب الجوع، والمرض اللذين فتكا بذلك الجيش.

لم يتقدم الجيش التركي بعد معركته مع ابن سعود، وإنما بقي قابعاً في معسكره، أو قريباً منه.. مكتفياً بتدمير بعض المستوطنات القريبة من ميدان المعركة. ولم يهاجم بلدة الرس المهمة، وإنما ظل معسكراً أمامها، في حين بقيت قوات ابن سعود معسكرة بالقرب منها- وظل الجيشان مواجهين لبعضهما لا يتحركان.

ولعل ابن سعود قد أدرك آنذاك أن التكتيك الأسلم هو الانتظار، حتى يصيب الجيش التركي الإرهاق. ولكن طبيعة البدو القلقة لا تحتمل الانتظار، كما أن ظروف الرعي في الصحراء قد لا تشجع على الانتظار طويلاً، أضف إلى ذلك انتشار الكوليرا التي أتت في معية الأتراك، في أوساط قوات ابن سعود، الأمر الذي أثر على معنوياتها، وبدا واضحاً أن تلك القوات كانت على وشك التمرد، بعد أن بقيت ساكنة جامدة لعدة أسابيع.

والواقع أن معاناة الأتراك كانت أكثر من معاناة البدو، فهم لم يعتادوا الصحراء، وكان زيهم العسكري يضيف إلى معاناتهم من الحر، ولو أنهم تركوه

إلى الزي العربي- كما فعل معظم الرحالة الأوروبيين قبلهم وبعدهم- لخففوا من معاناتهم تلك، كما أنهم ظلوا محصورين في معسكرهم لا يغادرونه خوفاً من أن يعصف بهم عطش الصحراء، أو يزهق البدو أرواحهم.. وفي الجانب الآخر كان البدو يتململون، ولا يطيقون سأم الانتظار، ولولا بقية من ولاء لانفلتوا راجعين إلى ديارهم.

ووسط كل هذا الانتظار المميت، كان ابن رشيد أول من تحرك، وتقول بعض الروايات: إن تحركه كان بسبب رغبة بدوه في الذهاب بإبلهم إلى مراع أخرى غير المراعي التي كانوا فيها، وتقول روايات أخرى: إنه أراد الزحف على بريدة والاستيلاء عليها، في أعقاب رسالة وصلته منها تقول: إن أهلها يريدون إعادتها إليه... ولم يدر ابن رشيد أن تلك الرسالة التي وقعها أحد كبار تجار بريدة كانت رسالة مزورة، من صنع ابن سعود... وقد وجد عبدالعزيز ضالته عندما تحرك ابن رشيد تاركاً المعسكر التركي، فلأول مرة في ذلك الصيف ينفصل ابن رشيد ببدوه عن القوات التركية.

انتهز ابن سعود تلك الفرصة، فهاجمت قوات من جيشه بدو ابن رشيد أثناء تحركهم ذاك. في حين قام الجزء الأساسي من جيشه بالهجوم على معسكر الأتراك، وقد تعلم ابن سعود من التجربة الماضية، أنه لو التحمت قواته بالقوات التركية، وقاتلوهم رجلاً لرجل، فإن المدفعية التركية ستكون وقتها عديمة الفائدة... وهذا هو ما حدث فعلاً... إذ التحم الجيشان، وأدى ذلك إلى اضطراب الأتراك ثم إلى تراجعهم عن معسكرهم، مخلفين وراءهم إمداداتهم، وأسلحتهم... وعندما رأى بدو ابن رشيد أن الأتراك يتقهقرون، تركوا القتال، وفروا ناجين بأنفسهم... أما ابن رشيد نفسه فقد جرح في هذه المعركة.

كانت الغنائم كبيرة، ويقال: إنها شملت صندوقاً تركياً مليئاً بالذهب، وغنموا عدة قطع من المدفعية، فأصبحت ولأول مرة في تاريخ آل سعود، لجيشهم مدفعية، وانشغلت قوات ابن سعود بجمع الغنائم عن متابعة النصر، وتعقب العدو المتراجع، الذي خلف وراءه خمسمائة وخمسين قتيلاً، وعدداً من الجند التائهين، الهائمين على وجوههم في الصحراء - استسلم بعضهم، وتمكنت قلة من الفرار مع ابن رشيد إلى حائل.. وتلك كانت هي كل الحكاية- وهكذا كانت النهاية.

كان نصراً كاملاً شاملاً، زاد من سمعة ابن سعود، حتى بلغت مداها في أوساط العرب.. أما في العاصمة التركية استامبول، فقد كانت الإشاعات تصور المعركة على غير حقيقتها، إلى أن وصل جنديان تركيان إلى الساحل، وحكوا لنائب قنصل بريطاني هناك قصة المعركة الحقيقية .

وقد اتفقت كل الروايات على أن ابن رشيد - حليف الأتراك- هو الذي أطلق النار على القائد التركي، عندما رفض هذا الأخير الهجوم على جيش ابن سعود، بل إن بعض الروايات ذهبت إلى حد القول بأن بدو ابن رشيد تحولوا وهاجموا الأتراك، والمعركة على أشدها، فقتلوا منهم مئة جندي، وجرحوا تسعين، ولم يكن حدوث هذا الهجوم بالأمر المستبعد، ذلك أن العرب في كلا الجانبين- الجانب السعودي، وجانب ابن رشيد- لم يألفوا الترك، بل كانوا ينفرون منهم، وربما وصل الأمر في بعض الأحيان إلى درجة بغضهم.. فولاء البشر ولاء متغير، متبدل دوماً.

أسفرت المعركة عن نتيجة غريبة، ذلك أن ابن سعود وفي ظرف شهر من وقوعها، أعلن إذعانه للسلطان العثماني، وسأله الصفح عنه وذلك عن طريق

والده، الذي أنابه عنه للاتصال بالسلطان العثماني، فكتب الوالد إلى السلطان رسائل استرضائية، يقول فيها: إن آل سعود هم الورثاء الحقيقيون للحكم في أواسط الجزيرة، وأن سوء الفهم الواقع بينهم وبين الدولة العثمانية ناتج عن افتراءات وكذب المغتصب ابن رشيد، وأضاف في إحدى تلك الرسائل: «إنني خاضع لكل رغبة وأمر من ظل الله... "السلطان"» واختتم قائلاً: «أنا العبد المطيع لسيدنا الخليفة الأكبر -حفظ الله عرشه إلى يوم الدين».

أصابت السلطان العثماني في لهجة الرسائل الخاضعة هذه- ولكنه ظنها لهجة غير صادقة... وقد كان محقاً في ظنه ذاك، فقد استسلم الإمام عبدالرحمن وابنه استسلاماً استراتيجياً، ذلك أن ابن سعود كان يعلم جيداً أنه على الرغم من هزيمته للقوات التركية، فإنه لن يستطيع في النهاية هزيمة الإمبراطورية العثمانية، وليس بإمكانه إيقافها من إرسال جيش وراء جيش ضده إذا ما هي قررت ذلك. وكان يعلم أيضاً أن تلك الجيوش ستسبب له إزعاجاً ومضايقات لا حصر لها ... وإنه لن يستطيع حسم صراعه مع غريمه ابن رشيد ما دام هذا متحالفاً مع الأتراك العثمانيين، علماً بأنه - أي ابن رشيد- هو العدو الأقرب، والأكثر خطورة.. وأنه من ثم لا حرج في أن يحاول استرضاء السلطان بكل الوسائل، دفعاً لخطره، ومحاولةً لفك التحالف القائم بينه وبين ابن رشيد.

بعد ثلاثة أشهر من المعركة، وبالتحديد في ديسمبر ١٩٠٤م، قرر السلطان العثماني قبول خضوع ابن سعود للدولة العثمانية.. ولكنه ما لبث أن عاد وغير رأيه. وقرر بحلول عام ١٩٠٥م، تجهيز جيش كبير ليزحف على نجد... ولم يكن السلطان العثماني بحاجة إلى شرح أسباب اتخاذه لهذا القرار، فليست هذه من عوائده... وربما أثر عليه بعض الحكام المحليين الموالين له في

الجزيرة العربية والذين كانوا يحسدون ابن سعود على نجاحاته المستمرة، ويخافون من قوته المتنامية، ونفوذه المتزايد، فمثلاً كان شريف مكة قد طلب من إستامبول أكثر من مرة إيقاف ابن سعود عند حده، والعمل على حد نشاطه قبل أن يستفحل أمره، ويزداد خطره... وحتى شيخ الكويت الذي استمرت صداقته لابن سعود وقتاً طويلاً على غير العادة، بدأ يجري اتصالات سرية مع الأتراك، ومع عدوه التقليدي ابن رشيد، بغرض العمل على الحفاظ على ميزان القوى في الصحراء.

كان قادة الجيش العثماني كارهين لزج قوات أخرى في الصحراء لمحاربة ابن سعود، ليس بسبب المصير الذي لاقته القوات العثمانية الفائتة في الصحراء، ولكن لأسباب استراتيجية، وهي قناعة أولئك القادة بأنه ليس في مقدور جيش نظامي أن يقوم بحملة عسكرية ناجحة ضد العرب في أرض صحراوية تبعد عن خطط إمداداته بحوالي خمسمائة ميل... وعلى الرغم من تلك القناعة، بدأت وحدات الجيش العثماني تتقدم ببطء واضح في الأجزاء الشمالية من أراضي ابن رشيد... وكان ابن سعود في هذه الأثناء يمطر السلطان العثماني بسيل من رسائل الولاء والخضوع... ولكنها وقعت على أذن صماء، إذ إن السلطان تجاهلها، ولم يرد عليها أبداً.

وفي ربيع عام ١٩٠٥م نظم شيخ الكويت اجتماعاً بين مندوب عثماني، وبين الإمام عبد الرحمن الفيصل، والد ابن سعود ومرة ثانيةً طلب الإمام في ذلك الاجتماع، وألح في الطلب أن يعفو السلطان عن ابنه عبدالعزيز، والتمس أن يكون ذلك العفو كتابةً، وأكد أن ابنه موال للدولة العثمانية، وأنه مستعد استعداداً تاماً لاستقبال حاميتين تركيتين في بريدة، وعنيزة، وأنه لا يمانع في

بقائهما في المدينتين، شريطة أن يُبعد ابن رشيد عن تلك المنطقة وما جاورها من أراضٍ.

انطلت الحيلة على السلطان، فصدقها، وأمر بإرسال قوة رمزية من الجيش العثماني إلى بريدة... وقد ترك لنا قائد تلك القوة الفريق صدقي وصفاً لدخولها بريدة في رسالة وجهها إلى السلطان، ولكن الرسالة وقعت في يد القنصل البريطاني في البصرة المستر كراو قبل وصولها إلى السلطان - وقد أعطانا المستر كراو ملخصاً لتلك الرسالة التي يقول فيها الفريق صدقي:- إن شيوخ بريدة أسرعوا إلى ملاقاته وقواته خارج المدينة، وأنه وزع عليهم كسوات (كساوي) الشرف، وعين اثنين منهم حاكمين على المدينة جزاءً على إخلاصهما، وطاعتهما... ثم دعا جميع الحضور للسلطان بالتوفيق والسداد... إلخ، ثم رفع العلم العثماني على سارية الحصن، وعزفت القوات الموسيقى العسكرية، واصطف الجنود، وهتفوا بحياة السلطان- الباديشاه... وأثناء كل هذه الاحتفالات (يقول صدقي) كان العرب يستمعون في خضوع تام، أيديهم وراء ظهورهم، ودموع الفرح تسيل من عيونهم.. ثم اختتم الحفل بإطلاق نيران المدافع تحيةً للسلطان.

علق القنصل كراو المعروف بتقاريره الساخرة على تقرير صدقي بقوله: وهكذا انتهى تقرير صدقي بالعبارات المليئة بمدح السلطان، وبتهنئته بهذا الحدث السعيد الذي ستتبعه نجاحات وانتصارات، بسبب تمسك جلالة السلطان بأهداب الدين، وبسبب قوته، ورحمته... ويضيف كراو قوله: إن الباعث على الشفقة في تقرير صدقي، هو أن صدقي لم يحرز انتصاراً قط، وأنه لم يدرك أن الشيوخ الذين تحدث عنهم كانوا يسخرون منه ومن كسوات

شرفه، وأن صدقي أصبح الآن عبارة عن طعم في مصيدة، وأن مصيره وحياته أصبحتا منذ الآن وقفاً على حسن نية ابن سعود، الذي لو شاء لقطع خط إمداداته في أي وقت شاء، ولتركه وجنده ليهلكوا في الصحراء.. وأن إبقاء تلك الخطوط مفتوحة رهن بمصالح عبدالعزيز السياسية فقط.

وهكذا استطاع ابن سعود إرضاء السلطان، وتمكن من تحييد قواته، وبقي هو حراً يفعل ما يشاء.. وبقي هو وابن رشيد ليحاربا معاركهما الصحراوية بمفردهما، ودونما تدخل من أحد، وقد بدأت تلك المعارك بعد عام من إرسال القوات إلى بريدة... وكان ذلك العام عاماً مليئاً بالمؤامرات والدسائس، والمناورات الغريبة، وقد تركز كل ذلك حول مدينتي بريدة، وعنيزة، اللتين لم يقبل الكثير من أهاليهما سيطرة ابن سعود عليهما... فقد بقي سكان بريدة وعنيزة منقسمين على أنفسهم: فئات منهم تساند ابن سعود، وآخرون يؤيدون ابن رشيد، وفئة ثالثة تتآمر مع شيخ الكويت ضد عبدالعزيز وابن رشيد... والفريق صدقي باشا ضائع بين هذه الفئات، لا يؤيده أحد، -وكان وجود ابن سعود بقواته قريباً من المدينتين هو العامل الوحيد وراء استتباب الأمن فيهما، وإبعاد شبح ابن رشيد عنهما، ولكن وبطريقة فجائية قرر ابن سعود ترك المدينتين، وأهلهما لحالهم، والذهاب إلى مشيخة قطر على ساحل الخليج، التي كان شيخها وأخوه يتقاتلان حول سدة الحكم.

وفي غياب ابن سعود تقدم ابن رشيد، واحتل بلدة الرس.. التي كان قد هُزم فيها مع الأتراك على يد ابن سعود، فانسحب سكان البلدة إلى بريدة استعداداً لمحاربته من هناك، وقد أطبق ابن رشيد قبضته على ذلك الإقليم، واشتد في حكم الأهالي للدرجة التي جعلتهم يطلبون من ابن سعود الرجوع إليهم، وتخليصهم من عسف الحكم الرشيدي.. وقد قيل فيما بعد: إن ابن سعود كان يتوقع ذلك، وإنه عندما ذهب إلى قطر إنما أراد أن يعطي الأهالي

فرصة الاختيار بينه وبين ابن رشيد.. ولو كانت تلك هي حقاً استراتيجيته فهي استراتيجية غير مسبوقة، وفي غاية الحكمة والذكاء. ولكن أعمال الرجال العظماء دائماً ما تفسر فيما بعد بما يتفق وعظمتهم... والواقع أن هناك تفسيرين محتملين لرحلة ابن سعود المفاجئة إلى قطر.

التفسير الأول: يقول: إنه لم يرد مقابلة الفريق صدقي الذي جيء به حاكماً زائفاً على بريدة.. إذ سيضطر إذا ما قابله أن يعبر له أمام أهل البلدة عن ولائه واحترامه له، ولدولته العثمانية، وكأنما أراد ابن سعود الخروج من هذا المأزق بعدم مقابلة صدقي..

أما التفسير الثاني: فيقول: إن مال عبدالعزيز كان قد نفد- وهو أمر كثير الحدوث- وإنه إنما جاء إلى الساحل- حسب ادعاء الوكيل البريطاني في البحرين، وحسب ادعاء بعض أهل البحرين- بغرض اقتراض بعض المال من شيوخ الساحل، وقد أكد على هذا الادعاء شيخ الكويت، وقال: إنه أخبر نوكس بأنه - أي الشيخ- سبق وكتب إلى ابن سعود ناصحاً له أن لا يظهر حاجته إلى المال، أو أن يعترف بها، لأن ذلك ليس من الحصافة أو الحكمة.. ولكن ومهما تكن دوافع ابن سعود للقيام برحلته الخليجية تلك، إلا أن مقدمه الخليج شكل هاجساً لشيوخه، الذين ربما كانوا على استعداد لإقراضه بعض المال، إن كان هذا سيقنعه بالرجوع إلى بلاده بسلام.

قلنا:إن فترة غياب ابن سعود عن بريدة، وعنيزة، جعلت أهلهما يفضلون حكمه على حكم ابن رشيد الشديد،... كما أن تلك الفترة شهدت تدهور حالة قوات الفريق صدقي التركية إلى الدرجة التي أصبحت فيها على حافة الهلاك، فقد تضاءلت مؤنهم إلى الحد الذي هددهم فيه شبح المجاعة... فقد صورت حالتهم البائسة تلك إحدى رسائل الفريق صدقي الموجهة إلى

السلطان، والتي وقعت مرةً ثانية في يد القنصل البريطاني في البصرة المستر كراو... الرسالة كانت مؤرخة في صيف ١٩٠٥م، وكانت رسالة مثيرةً للشفقة، تحدث فيها صدقي عن الأحوال الصعبة التي يعيشها رجال قوته بسبب افتقارهم إلى الماء والطعام، ويصف كيف أن تعييناتهم قد أنقصت إلى نصف الكمية المعتادة، وكيف أنهم لا يجدون المال حتى لشراء الأكفان لموتاهم... وقد أكد بعض الفارين من قوة صدقي على حالتهم المحزنة هذه، فقد وصل حوالي خمسة وعشرين جندياً من الذين فروا إلى الكويت... حيث رووا مأساة زملائهم في بريدة، وقالوا: الموت والفرار من الخدمة أنقصا عدد أفراد الفرقة إلى النصف.

حاول ابن سعود أن يفيد من رحلته الخليجية، وذلك عندما أرسل أثناءها رسولين إلى البحرين- واحداً إلى مكتب البرقيات بالبحرين، والآخر إلى الوكيل السياسي البريطاني هناك... ومن مكتب البرقيات أرسلت برقية مطولة من ابن سعود إلى السلطان العثماني، أكد فيها ثانيةً على ولائه، وولاء أسرته للسلطان.. وقبل أن ترسل هذه البرقية كان الوكيل السياسي البريطاني قد حصل على نسخة منها بوسائله الاستخبارية الخاصة... وبعد ساعات قليلة من إرسال هذه البرقية جاء رسول ابن سعود الثاني حاملاً رسالة منه إلى المقيم السياسي البريطاني، فحواها مناقض تماماً لنص البرقية المرسلة إلى السلطان.. فقد قال الرسول للمقيم البريطاني: إن سيده ابن سعود يشعر أنه قوي الآن للدرجة التي يستطيع بها طرد الأتراك ليس من أراضيه فحسب، وإنما من إقليم الأحساء أيضاً الذي ظل تحت سيطرتهم لأكثر من ثلاثين عاماً. وإنه يود بعد قيامه بهذه المهمة أن يمضي اتفاقية مع البريطانيين يمنحهم بموجبها حق تعيين وكلاء سياسيين في أراضيه - بما فيها الأحساء المحررة-

على أن تتعهد بريطانيا في مقابل ذلك بحمايته ضد أي هجوم بحري قد تشنه عليه الدولة العثمانية.

هذه الازدواجية في المعاملة ليست وقفاً على أمة دون أمة، أو حكومة دون أخرى، وإنما هي لعبة دبلوماسية تعرفها كل الحكومات، غير أن بعض الحكومات تمارسها بطريقة مكشوفة وبريئة، والبعض الآخر يمارسها بطرق دبلوماسية ملتوية، وتلك هي الحكومات التي يصعب على المرء فهم سلوكها من ناحية خلقية، فهي تعمل جاهدة، وبكل السبل على تغطية سلوكها ذاك، مدعيةً أنها مبرأة من كل عيب... ومهما يكن من أمر سلوك الحكومات والحكام، فقد تسلم الوكيل البريطاني في البحرين رسالة ابن سعود بكل برود، وكأنه لا يعلم شيئاً عن البرقية المرسلة إلى السلطان قبل سويعات قلائل... تسلمها وأرسلها مباشرة إلى كوكس مبدياً سروره وغبطته نحوها، ولم يكن من كوكس إلا إرسالها إلى الهند، حيث وجدت من هناك طريقها إلى وزارة الخارجية البريطانية التي رفضتها ورفضت ما جاء فيها رفضاً باتاً، تماماً كما رفضت طلبه السابق الذي كان قد طلب من بريطانيا فيه عونها ومساندتها ضد الأتراك.

عاد ابن سعود إلى الرياض، وسرعان ما غادرها طالباً ابن رشيد بهدف إثارته للدخول معه في معركة خاصة ً وأن قوته الحربية قد أصبحت مساوية لقوة ابن رشيد، الذي لم يكن حريصاً على مواجهة قد تكون هي النهائية.. ولذا قضى الرجلان شتاء ١٩٠٥م في مناوشات ثانوية، وكان جيش ابن سعود يتفوق على جيش ابن رشيد بحماسته وروحه الدينية الدافقة التي تحفزه على القتال، والصبر عليه... وكان ابن رشيد يعلم سريان تلك الروح في جيش غريمه، ويخشاها، كما كان يخشى احتمال استعمال ابن سعود للمدافع التي

غنمها من القوات التركية في قتاله معه، ولكنه لم يكن يعلم أن قوات ابن سعود لم تتعلم استعمال تلك المدافع بعد .

لم يتوصل الرجلان إلى هدنة بينهما كما قال نوكس في أحد تقاريره من الكويت وأغلب الظن أن نوكس قد أخطأ في قوله ذاك.

بحلول أبريل ١٩٠٦م كان ابن رشيد معسكراً في واحة تبعد أقل من عشرين ميلاً شمالي بريدة[١]، وكان يقوم بغارات بين حين وآخر، وقد تعرض في إحداها لقافلة كانت تحمل مؤناً لقوات الفريق صدقي، وغنمها، وقد طلب قائد تلك القافلة من ابن سعود -والذي كان قريباً من مكان الحادث- المساعدة، والانتقام من ابن رشيد، خاصة وأنه قد علم من جواسيسه بأن معسكر ابن رشيد يفتقر إلى الحراسة الجيدة.

كانت فرصة مثالية لمباغتة ابن رشيد، وهو أمر طال انتظار ابن سعود له، وما إن حل الظلام، حتى قام رجاله بتطويق الواحة يساعدهم على ذلك (كما قال البعض) هبوب عاصفة رملية، مكنتهم من الاقتراب من معسكر ابن رشيد، وتطويقه دون أن يشعر بهم أحد، انقض رجال ابن سعود على المعسكر، وعلى أهله النيام فقتلوا منهم عدداً كبيراً، وعبثاً حاول ابن رشيد تجميع رجاله، وإعادة تنظيمهم، وكأمير عربي محارب أعلن عن نفسه عندما بدأ يرتجز أرجوزته الحربية المعروفة. وظل يقاتل ببسالة، إلى أن أصابه طلق ناري قاتل، فمات في وسط أشجار النخيل، والليل يلفظ أنفاسه الأخيرة.

---

(١) تعرف هذه الوقعة بمعركة روضة مهنا، وكانت في ١٨ صفر ١٣٢٤هـ الموافق ١٩٠٦م، وقد انتهت هذه المعركة الحاسمة بمقتل عبدالعزيز بن متعب بن رشيد.